محمود تيمور

شبابٌ وغانيات

وأقاصيص أخرى

الناشر
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

محمود تيمور

شباب وغانيات

وأقاصيص أخرى

الناشر
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعـة الأولى — ١٩٥١

شباب وغانيات

١

نشأتُ فى أعقاب القرن الماضى ، القرن التاسعَ عَشَرَ ، يتيماً لا أرى لى أباً ولا أمّا ، وعشتُ مع أخى وزوجته فى منزل الأسرة الكبير بـ « الحمزاوى » ، يقوم على شئوننا خَدَم كثير . وكنت أشهد الزُّوَّار لا ينقطعون عن زيارتنا فى صيف أو شتاء ، ومنهم من يقضى فى ضيافتنا الأيامَ والأسابيع .

وكان المنزل أشبَه بالقلعة العتيقة ، له سُور شاهق ، ومخابىء مرهوبة . وهو يَزْخَر بأثاث فخم تحتويه حجرات رحيبة ذات سقوف عالية تملأ النفس من روعة وجلال .

أما الحديقة فغير منسَّقة ، تكتظُّ بالأشجار الكبيرة ، وتتوسطها نافورة دَبَّ فيها البِلَى ، فتهدمتْ منها الجوانب ، وغاض بعضُ مائها من بهاء . ولكنها مع ذلك لم تفقد جاذبيتها التى تستهوى القلوب وتستلفت

الأنظار . وقد جعل البستانىُّ حولها مرتعاً للبط والإوزّ، يظل طول يومه سابحاً فى الماء سِرْباً خلفَ سرب ، فى غبطة ومراح ، مردِّداً صيحات يستجيب لها الطير على أفنان الشجر بالأغاريد . وغير بَعيدٍ من تلك النافورة تقوم ظُلَّة خشبية عَفَّى عليها الزمن ، تُشْعِرك بما بقى فيها من جمال ورونق أنها كانت فى سوالف السنين مسرحاً لألوان من الأنس والمتعة والنعيم .

وكان « حمادة » أخى لأبى ، يَكْبُرُنى بثلاثين عاما ، وكنت أخشاه وأتجنب لقاءه جهد ما أستطيع ، فإن نظرة واحدة منه جديرة أن يَرْجُفَ لها قلبى رعباً . ولم يكن الخدم بأشدَّ شجاعة منى فى لقائه ، فهم إذا سمعوا على البُعد وَقْعَ خطاه الثقيلة المتزنة تسللوا لِوَاذا .

وكانت زوجته «مَوَدَّة هانم» التى أناديها بأمى ، تحبه وتجله ، حتى إنها تُحَكِّمُهُ فى مالها كله، ولا تحاسبه فى شىء منه ، وهى تعلم أنه أضاع صفوةَ ما يمتلك ، قبل أن يكون لها زوجاً . ولم تكن قد رزقتْ منه بولد ، فاتخذتنى ابناً لها ، وأغدقتْ علىّ من حنانها وتدليلها ما أنسانى يُتْمِى ، فأحببتُها حبَّاً عميقاً ما أحسَب أن الأبناء يدخرون أكثرَ منه للأمهات .

وكانتْ لى حاضنة حبيبة إلىّ اسمُها «مسرّات» نُوبِيَّةُ المَنْبِت ،

غليظة الجسم فى تَرَهُّل ، شَدَّ مَا أعاكسها فلا يهون عليها أن تؤذينى لحبها إياى ، وحين يبلغ منها الضِّيق كل مبلغ تَهِيجُ حماقتها الجامحة ، فَتَنْحِى على وجهها ضرباً وشدّا .

وكان للبستانىّ مساعد يدعى « العَيُوطى » وهو غلام على هيئة « الغوريلا » مجعَّد البشرة ، له صوت خَشِن ، وسَعْلة مزعجة ، وله نظرات غَريبة تنفذ إلى صميم قلبى وتهزّنى . وعلى الرغم من كراهيتى له كنتُ أستجيب لما يريدنى عليه ، فأسرق لفائف أخى طاعة له ، وأدخّن معه فى الحنايا المهجورة من الحديقة . وكانت تَغيظنى منه نظرات الاحتقار التى يُصَوِّبها إلىّ ، وتلك اللهجة العنيفة التى يخاطبنى بها . وقامت بنفسى أمنية عزيزة ، هى أن تتاحَ لى فرصة طيبة ، فأتناولَ عصاً غليظةً لأنهالَ بها عليه أشبعه ضرباً .

وعصرَ يوم من الأيام ، فاجأنا أخى ونحن فى الحديقة ندخن ، وسرعان ما حكم علىّ بالحبس فى مَخْزن الوَقود القصىّ ، معتزِماً أن يتركنى فيه عامةَ الليل ، فقذف بى فى المخزن ، وأغلقَ بابه علىّ ، فإذا هو حجرة قذرة ليس فيها إلا كُوّة عالية ينفُذ منها الضوء مُجْهَدا هزيلا . ولم أشعر بادئَ الأمر بالوحشة ، إذ قَدِمَ بعض الخادمات يسامرننى خلفَ الباب ، ولما تفرّقْنَ عنى ، وأحسستُ الوَحدةَ الراعبة ، ورأيتُ

الظلمة تحتشد ، خُيِّلَ إلىّ أن عيوناً حُمْراً يتراقص منها الشرر متوثّبة حوالىّ ، وأنى أسمع زمزمة مخيفة تُصِمُّ أذنى . فانبعثتُ أبكى وأصرخ مستغيثاً بزوج أخى وحاضنتى ، وأنا متشبثٌ بالباب مطبَق العينين .

وطرق سمعى جلبة فى الدار ولغط ، ثم تبينت أنهم أرسلوا « الأغا » ليطلب المفتاح من أخى ، وكان فى زيارة لأحد أصدقائه من الجِيرَة ، وسمعتُ زوج أخى صارخة تستحثّ الخدم على الإسراع ، وهى مطلة من نافذة حجرتها العليا ، تقول بين فترة وأخرى :

أدركوه . . . سيموت الولد حتما !

وسمعت كذلك حاضنتى « مسرّات » ، وهى على مقربة من باب المخزن ، تبكى تارة ، وتطمئننى طورا . . .

و بعد فترة جِيء بالمفتاح ، فما إن أحسستُ بالأيدى تتلقانى حتى خارت قواى ، وسرعان ما وجدتُنى على سرير زوج أخى ، وهى بجانبى تُنشِقُنِى عطراً منبهاً ، وتَنْضَح وجهى بماء الورد ، فتعلقتُ بها أتوسل إليها ألّا تبرح مكانى ، فأخذتنى فى حِضْنها ، وأكدت لى أنها ستُبقينى فى فراشها ليلتى هذه . وأحسستُ يَدَى الحاضنة « مسرات » تَدْلُكَانِ قَدَمِى . وكان جوُّ الحجرة مُشْبَعاً بالبَخُور ، فشعرت بتخاذل يسرى

فى أوصالى ، فيبعث فيها الراحة والطمأنينة ، ولم ألبث أن أرخيت جفنى ، واستغرقتُ على الأثر فى نوم عميق .

وفى غدٍ أخذتنى « مودَّة هانم » من يدى ، ومضتْ بى إلى الردهة ، حيث يتناول أخى قهوة الضُّحى ، وقالت لى :

أَقْبِلْ يا « سامى » فقَبِّلْ يدَ أخيك مستسمحاً .

فأذعنتُ لأمرها ، وانصرفتُ من لَدُنْ أخى مرضِيًّا عنى .

وعلمتُ بعد ذلك أنهم طردوا « العيوطى » من الدار ، بعد أن أوجعوه بضربات حامية على رجليه ، فكأنَّ حملًا ثقيلًا انزاح عن عاتقى ، بيد أنى وَدِدْتُ لو شهدتُه وهو ممدَّد يتلقى الضربات الموجِعة ، شفاءً لنفسى منه .

وكان الشيخ « الزينى » معلمى الذى لقننى مبادئ القراءة والكتابة ، يَفِدُ صبحَ كل يوم ليلقى علىّ درسه الراتب ، وهو رجل أعمشُ ، قصير القامة ، بدين كأنه كُرَة من الشحم ، كثيراً ما تأخذه سِنَة النوم أثناء الدرس ، فيَدَعُنى فى الحجرة ألعب بلا رقيب . وكان مشغوفاً بالقهوة يطمع أن تتلاحقَ له أقداحُها فى الفينة بعد الفينة ، ولذلك لا يفتأ يناصِبُ الفرّاشَ العِداءَ فى شأنها .

وكانت الحجرة التى نجلس فيها للدرس مَنْظَرة لها مكانتها فى الدار ،

إذ أُعِدَّتْ من قبل ليتلوَ فيها القراء رواتب القرآن ، ولأمرٍ مَّا أُهملتْ واتُّخِذَتْ مخزناً للقديم من الأمتعة والأدوات ، ثم أُخْلِيَتْ بعد ذلك لتكون لى حجرةَ مذاكرة ودرس .

و بينما كان الشيخ « الزينى » يلقى علىّ يوماً درساً فى الإملاء ، وهو مسبَل الجفنين ، يَغْشَاه خمولُه ، إذ سمعتُ وَقْعَ خطا وئيدة ثِقالٍ تصعد سلالم المَنْظَرة، فعرفتُها على الفور، وصحتُ مُزْعَجاً : أخى «البك» !

واهتزَّ الشيخُ « الزينى » فى مقعده ، وفتح عينيه ما وسعه أن يفتحهما ، وأخذ يمسح لعابه المتسايلَ على جانبَيْ فمه ، ثم هبّ واقفاً ، واندفع مهرولاً نحو الباب . ورأيتُ أخى قادماً ، والشيخ ينحنى على يمينه يصافحه ، ثم تقدم وجلس على المُتَّكَإِ ، وأشار إلى معلمى أن يجلسَ على الكرسىّ ، غيرَ بعيد منه ، فامتثل الشيخ ، وجلس جِلْسَةَ وقار .

وسعل أخى سَعلته المألوفة ، ثم قال :

لى معك حديثٌ فى شأن الولد « سامى » . . .

فَرَجَفَ قلبى ، وسارقتُ النظرَ إلى الشيخ « الزينى » فلمحتُ شفتيه تهتزان بلا كلام ، واستأنف أخى قوله :

لقد آن أن نُلْحِقَ« سامى » بالمدرسة . . . فقد أوفتْ سِنُّه على

التاسعة ، وموعدُ افتتاح الدراسة بعدَ شهر ، فهل لك أن تُعِدَّه لذلك ؟

فأجاب الشيخ وهو يَدْعَك يديه :

يمكنك يا سيدى أن تعوِّلَ علىَّ ، وسترى ما يسرُّكَ إن شاء الله .

— هـذا هو المأمول فيك ، ولن ننسَى أن نجزيَكَ على الجميل بالجميل . . .

— خيرُكَ فَيَّاض يا سـيدى « البك » ، لا حَرَمنَا اللهُ عطفَك الـكريم . . .

وما عَتَّمَ أخى أن نهض مشيَّعاً بالإجلال ، وصَرَفَنى المعلم قبـل انتهاء فترة الدرس ، بحجة أنه ماضٍ يبحث عن كتب الإعداد للمدرسة ، فانطلقتُ والأفـكار تلتطم فى رأسى ، وقصـدتُ حجرة « بشير أغا » فرأيتـه جالساً على حَشِيَّة يهيىء قهوته ، وكانت الشيخوخة قد أقعدته عن العمل منـذ زمن ، فلزم حجرتَه لا يبرحُها إلا إذا كُلِّفَ عملا ذا شـأن . فجلستُ بجواره صامتاً أرقُبُه ، وانبعثتْ من القهوة رائحة زكية حين جعل يَصُبُّها فى القدح ، فقلت له :

ألا تُذيقنى جُرْعَةً من قهوتك هذه ؟

فرمانى بنظرة شزراء وقال : عَيْب أن تطلب منى ذلك يا ولد . . .

فقلت مستدرِكا : لن أطلب منك ذلك . . . لا تغضب !

ومرت هُنَيْهَة صمت ، ثم سألتُ « الأغا » :

ألم تدخل مدرسةً فى حياتك يا عم « بشير » ؟ . . .

فاحمرتْ حَدَقَتاه ، وزمجر قائلا :

مَنْ أخبرك أنى تعلمتُ فى المدارس يا قليلَ الحياء ؟

— لماذا تشتُمنى ؟ أفى سؤالى ما يَسُوءك ؟

وأقبلتُ عليه ألاطفه ، معتذراً إليه ، وقلت :

سأَلْحقُ أنا بالمدرسة بعد شهر .

فانفجر « الأغا » ضاحكاً ، وقال :

لقد آن الأوان إذن لتدخلَ السجن !

فرنوتُ إليه ، وقد اعترتنى بَهْتَة ، وقلت : وهل المدرسة سجن ؟

— أَوَ كُنْتَ تحسبُها جنة ترتع فيها وتمرح ؟

فنكستُ رأسى لحظة ، ثم رفعتُ إليه بصرى ، وأنا أقول :

وهل المنزل جَنَّة ؟ ستكون المدرسة خيراً لى على أية حال .

— عجباً لك . . .

— حسبى أنى سأخلُص من سوء معاملة أخى لى .

— إنه يربِّيك .

— بل يكرهنى . . . وإنى كذلك أكرهه !

وشعرتُ بغتة أن ما تفوَّهْتُ به إثْم كبير، فاجتذبتُ يدَ « الأغا » ، وطَفِقت أقبِّلها ، وأُلِحُّ عليه فى الرجاء ألا يُظْهِرَ أخى على شىء مما دار بينى و بينه ، فطيَّب خاطرى ، وأنالنى حُسْوَةً من قدح القهوة ، وهو يتضاحك قائلا : اشرب قليلا لتهدأ نفسُك !

فتناولت الحُسْوَة ، وحثثتُ إلى الحديقة خُطاى .

٢

وفى ذات يوم ، سمعتُ من زوج أخى أن « إجلال هانم » وحفيدتها « تهانى » عادتا من « استانبول » وأنهما ستزورا ننا عما قليل . وكان يطيب « لإجلال هانم » إذا ما حلّتْ ضيفةً علينا أن تُمْضِىَ بيننا أسبوعاً أو أكثر ، فتلقيتُ هذا النبأ بِهِزَّةِ اغتباط وسرور .

و بينما أنا فى حجرتى يوماً ألعب ، إذ تناهتْ إلىّ ضوضاء مركبة تجوزُ فِنَاءَ البيت ، فهرولتُ إلى النافذة ، فرأيتُ رَكْبَ « إجلال هانم » يتهادى نحو باب الحَرَم ، وأمام الخيل سائسان يرْفُلان فى الملابس المُقْصَبَة . أما السائق فكان فى حُلَّته الرسمية ، و بجانبه « فيروز أغا » مرتدياً لَبُوسَه الأسودَ الذى لم يستبدل به زِيًّا طولَ حياته . وما هى

إلا أن نزلتْ «إجلال هانم» من المركبة ، ملثَّمَة الوجه بالغلالة الشَّفَّافة البيضاء ، لا يبدو منها غيرُ عينيها البراقتين الصغيرتين تقلبهما فى رزانة وتوقّر . وتبعَتْها حفيدتُها «تهانى» فى ثوبها الناصع البياض تَخْطِرُ فى تأنق وخُيَلاء، وتنقل قدميها على محاذرة واحتراس، كأنها تخشى ملامَسة الغبار ومعابثةَ النسيم . فهبطتُ الدَّرَجَ مسرعاً إلى البهو الكبير أستقبلهما ، فما إن بلغتْ مسامعى خطوات القادمين حتى ألفيتُنى أتوارى خلف إحدى الستائر ، ودخلتْ «إجلال هانم» البهو ، وئيدةً فى مِشيتها النبيلة ، وبجانبها زوج أخى آخذةً بيد «تهانى» ، تحيط بالجمع شِرْذِمَة من الخادمات ، يتقدمهنّ «فيروز أغا» حاملاً لفيفة ضخمة .

وسرعان ما تلفتت زوج أخى ، ثم قالت :

أين «سامى» ؟ لتذهبْ إحداكن لاستدعائه على الفور .

فلم أجد مَناصاً من الخروج ، وأثار ظهورى من مخبئى ضَجَّةَ ضحك ودعابة ، فتقدمتُ من «إجلال هانم» وانحنيتُ أقبل يدها ، تلك اليد البَضَّةَ المورَّدَة التى تشبه فى نعومتها مَلْمِسَ الحرير ، ثم انثنيت إلى «تهانى» فصافحتها دون أن أنبسَ .

ودخلنا جميعاً قاعة الزوار ، وبعد هنيهة قَدِمَ أخى ، فوقف خلفَ الباب يحيى الضيفة ، فدنتْ هى من الباب تبادله التحية ، وجرى بينهما من مقتضَبِ الحديث ما يقتضيه المقام .

وعادت « إجلال هانم » إلى مجلسِها ، فعَمَدَتْ إلى اللفيفة التى كان يحملها « فيروز أغا » وجعلت تعالجُ حلَّ رِباطها ، فمالت « تهانى » على أذنى تهمس : تلك هدايا لكم .

وطفقتُ أُراقب « إجلال هانم » فى شغف ، وهى تَحُلّ الرباط ، فلما تفتحت اللفيفة أسرعتْ إليها « تهانى » تَنْبُشُ وتفتش ، لا تبالى ما ترميها به جَدَّتها من زجر وانتهار . ثم أفلحتْ فى استخراج هديتى ، وجاءتنى بها على عَجَل ، وهى تقول :

انظر . . . حافظة كتب ، مُوَشَّاة بالقَصَب . . .

ونادتنى « إجلال هانم » فلبيتُها طائعاً ، فناولتنى عُلْبَةً من الحلوى ، فقبّلتُ يدها شاكراً ، وانصرفتُ من ساعتى مع « تهانى » إلى الحديقة ، وقد أخذتُ يدها فى يدى ، وانطلقنا نتواثب مَرِحَيْن ، وسألتنى « تهانى » : هل أعجبتك الحافظة ؟

— أعجبتنى جدًّا

— ستضع فيها كراسات الشيخ « الزينى » .

— بل كراسات المدرسة .

— المدرسة ؟

— سألْحق بها بعد شهر .

— أمسرور بذلك أنت ؟

— لستُ بمسرور ولا بمحزون .

وكنا قد اقتربنا من الظُّلَّة بجوار النافورة ، فتلفتتْ « تهانى » ، ومضت تَهُشُّ بيدها على الطير السابح فى الماء ، وتصفّق طرباً قائلة :

يلوح لى أن الحديقةَ كما تركناها من قبل ، زَهْرَاء غَنَّاء . . . . مافتئ البستانىّ يرعى الإوزّ والبط .

ودَلَفنا إلى الظُّلَّة ، وهممنا بأن نجلس على المقاعد الممدودة ، وإذا « تهانى » تُحْجِم عن الجلوس ، وتنظر إلىّ قائلة :

أليس لديك منديل نظيف ؟

— لدىّ .

وأخرجتُ من جيبى منديلا بسطتُه على مقعدها ، فجلستْ وأخذتُ مكانى بجانبها ، وفتحتُ علبة الحلوى ، وبدأنا نأكل مما تحتويه .

وبعد هنيهةِ صَمْت ، قالت « تهانى » :

لا أرى « العَيُّوطى » يلازم البط والإوز كعهدى به .

فشعرتُ بارتباك ، وما أسرع أن تماسكْتُ ، وقلتُ فى غير مبالاة :

لقد طردناه .

— لماذا ؟

— لم يكن يحسن القيام بشيء

وجعلتُ أسألهـا عن رحلتها إلى « استانبول » وانسرحنا فى أحاديث عِذَاب ، كانت فيها تقصّ علىّ ما لقيَتْ من حفاوة فى بيوت أسرياء الترك ، وما سمعتْ من إشادة بها و إطراء . ثم أخذت تصف لى ما شهدتْ هنالك من مناظر جميلة ومباهج فاتنة ، لا نظيرَ لهـا فى « مصر » من أقصاها إلى أقصاها .

وسألتُهـا فى أثناء الحـديث :

ما هو أروع شيء وقعت عليـه عيناك . .

فقالت ، وهى متحمسة مهتاجة النفس : الصدر الأعظم !

فأسرعتُ أقول فى تطلع وتشوُّف : أرأيتِه ؟

فابتسمتْ فى استخفاف وقالت : ما إن دخلتْ عليه ، حتى حملنى بين يديه ، وقَبَّلَنِى فى بشاشة وترحيب ، ولـكنى دفعتُه عنى وقلت له : إن شاربَك يَشُوكُنِى ، هلا شَذَّبْتَ أطرافَه ؟

— أحقًّا جرُؤتِ على أن تقولى ذلك له ؟

— لقد أغرق فى الضحك ، وربَّتَ خدى ، وقال لى : فى زيارتك التالية لن يَشُوكَكِ شاربى ياصغيرتى الحسناء !

انطلقتُ أسرّح الفكر لحظاتٍ فيما أسمعتْنِي إياه « تهانى » من هذا النبإ الخطير، وسألتها : ما شكلُ الصدرِ الأعظمِ ؟

فقالت وهى تستعين بإشارتها على التعبير :

ياله من رجل . . . قامة فارعة ، وجسم ضخم ، ووجه مُطهَّم ، وعينان ينبعث منهما وَميضُ العزة والكبرياء .

ولما قفلنا إلى المنزل ، ذهبت « تهانى » إلى جدتها فى حجرتها التى أعددناها لها فى الطبقة الأولى ، أما أنا فصعدتُ إلى حجرتى لأضع حافظة الكتب وعلبة الحلوى ، وفيما كنتُ مارًّا بحجرة زوج أخى طرق أذنى لغَط ، فدنوتُ من الباب أسترِقُ السمع ، فإذا أخى يقول :

لا أحبُّ هذه الهدايا التى نؤدى ثمنَهَا أضعافاً مضاعَفة !

وكان فيما يقول عنيفَ اللهجة ، ففررتُ إلى حجرتى ، وأنا أشعر بألم دفين ، ووثبتْ إلى ذاكرتى أشتاتٌ من الأحاديث كانت تترامَى إلىّ فى شأن ما تكابده « إجلال هانم » من متاعبَ ماليَّةٍ ثقال .

٣

لبثتُ أُمْضي أوقاتي مع « تهاني » نرتع ونلعب ، حتى إذا قَدِم الشيخ « الزيني » ليلقنني درسه الراتب إعداداً لدخولي المدرسة ، لم تَدَعْنا « تهـاني » في خلوتنا نقرأ ونستذكر ، بل كانت تقتحم الحجرة وتفسد علينا المجلس بما تبعثه من تضاحك وضجيج ، فإن قعدتْ مدّت قدميها في وجه الشيخ ، فلا يفتأ يعنّفها في تضايق ، فتخرج مُغْضَبة ثائرة ، وتشكوه إلى الخدم ، مدعيةً عليـه أنه ينهال عليها ضرباً وقرصاً ، وتأبى إلا أن تستشهدَ بي ، فلا أجد إلى تكذيبها والإنكار عليها من سبيل !

وكثيراً ما كان يطيب لنا المُكْثُ في الحديقة نتصيَّد العصافير بالنَّبْل ، ونحتال لتسلُّق الأشجار والأسوار .

ومرةً لمحتْ « تهاني» عُنْقُودًا يانعاً من العنب متدلياً من عَرِيش الكَرْم ، فأشارت إليـه ، وقالت : ما أجمل هذا العنقود !

فقلتُ لها وقد فطنتُ إلى رغبتها : سأنادي البستانيَّ يقطِفه لك .

فنظرتْ إليّ نظرةَ استنكار ، وقالت : مَن أخبركَ أني أريده ؟

فدَهِشْتُ من لهجتها ، وما عَتَّمَتْ أن تجهَّمَ وجهها . . . وغَشِيَنا الصمت بعض الوقت ، ثم قالت « تهاني » كأنها تحدث نفسها :

طالما قطف لى « إحسان » بن « فوزى باشا » بيده عناقيد أبعدَ من هذا العنقود منالا !

فاعترتنى حيرة وضيق ، ورأيتُ « تهانى » تهزّ رجليها فى خُيَلاء وازدراء ، فغمغمتُ قائلا : ولكن أخى . . . أخشى أن يباغتنى . . . شَدَّ مَا نهانى عن العبث بفاكهة الحديقة !

— إن « إحساناً » لا يخشى أخاه ولا أباه إذا رغبتْ إليه فى شىء !

ونظرتُ مُحْنَقاً إلى عُنقود العنب ، ثم عقدتُ يدىَّ خلف ظهرى ، ومشيت فى خطوات عابثة أتكلف الهدوء والسكينة ، ثم استندتُ إلى إحدى قوائم الظُّلّة ، وَطفِقتُ أتشاغل بعود انتزعتُه من شجرة النبق ، أَقْشِرُه وأَكْسِره . وكان الوقت يَمُرّ بى فى بطء شديد ، والتفتّ التفاتة خفية إلى « تهانى » ، فألفيتها ما برحت تهز قدميها وتحدّق فى الأفق شامخة الأنف . ثم لاحظتُ أنها تسارق النظر إلىّ ، وتلاقت عينانا ، دون عمد ، فانفجرنا على الأثر ضاحكَيْن مقهقهَيْن ، وسرعان ما وجدتُنى أقصد إليها ، وآخُذُ مجلسى بجوارها ، فإذا بها تدغدغنى على حين غفلة ، فقفزتُ ضاحكاً ، وعَدَتْ هاربة ، فعدوتُ خلفها بما وَسِعَنى من جهد ، ولَذَّ لنا الطواف بالحديقة ، نتضاحك ونتصايح ، ثم رجعنا إلى مكاننا من الظلة ، وتهالكنا على المقعد ، وأنفاسنا تتلاحق . . .

وقالت « تهانى » : لم تستطع اللحاق بى .

فلم أنكر عليها ما تدَّعِى ، وما كان يُعْيِينى اللحاقُ بها لو أردتُه .

وعلى حين بغتة قمتُ إلى عريش الكرم ، وهممتُ أن أتسلقه ، وأدركتْ « تهانى » ما أنا فاعل ، فصاحتْ بى تمنعنى ، فأصررتُ على إنفاذ ما هممتُ به . وواتتنى شجاعة حافزة ، فمضيت أَقْطِف العنقود ، ثم هبطتُ به إلى الأرض ، فَشَمِلَتْنِى غبطة لا عَهْدَ لى بها من قبل ، وجلستُ و « تهانى » بجوار النافورة نأكل من العنقود ، ونرمى للإوز والبط بما لا نستطيب من حبَّات العنب ، وخُيِّلَ إلىّ أنى لم أَطْعَمْ فى حياتى فاكهة لها لذة هذا العنقود !

وكان أخى قد اشترى لى مركبة صغيرة بِمُهْرٍ ظريف ، لكى تكون لى فى ذهابى إلى المدرسة وأوبتى منها ، واختار لها السائس « مدبولى » سائقاً .

وقد أجاز لى أخى فى هذا اليوم أن أخرج بالمركبة أتنزَّه أنا و « تهانى » . فارتديتُ حلتى القشيبة ، وأمسكتُ بيمناى العصا التى أهداها إلىّ بائع الملابس حين اشتريتْ الحلة ، واكتستْ « تهانى » ثوبها الحريرى الأبيض ، ولبستْ قُفَّازاً وحذاء على لون الثوب ، وَعَصَبَتْ شعرها الفاحمَ برباط حريرى ناصع البياض ، وتعطرت بعطر جدَّتها الفاخر ، وخرجتْ معى إلى الفِنَاء رائعة الزينة متألقة المُحَيَّا ،

تنظر إلى نفسها ، ثم تطوف بعينها فيما حولها كأنها تستدرّ الإعجاب والإطراء . وألفينا مُهرَ المركبة يصهل ويتوثّب فى حَمِيَّة وفتوة ، ضارباً الأرض بحوافره . واعتلى السائق « مدبولى » مقعدَه فى جلباب أزْهَرَ ومِعْطَف سابغ ، فالتفتت إلىّ « تهانى » ، وقالت مهتاجة :

أهذا الرجل الذى يرتدى الجلباب هو سائق المركبة ؟

— إنه « مدبولى » السائق الخاص لمركبتى .

فدقّتْ بقدمها صائحة :

لا أكون فى مركبة يسوقُهـا رجل فى جلباب !

ولمحتُ الدمعَ يتحيّرَ فى عينيها ، فجعلتُ أترضّاها جهدى ، فلم تَلِنْ وهمتْ بالعودة إلى الدار ، فأمسكتُ بهـا ، وأدرك « مدبولى » عِلّةَ ما بيننا من نزاع ، فنزل عن المركبة مسرعاً ، وقصد إلى حظيرة المركبات وما هى إلا أن خرج منها عليه حُلّةُ رئيسه « الأسطى عثمان » . واتجه إلى « تهانى » يقول لها : أيعجبك هذا الزّىُّ ياهانم ؟

ومضتْ بنا المركبـة إلى الحارة ، وجازَتْها إلى الشارع ، ومالت « تهانى » على أذنى هامسة : يجب أن تضع ساقاً على ساق ، وأن تجلس جلسة الأمراء . . . ألا ترى الناس يرمقوننا بعيونهم ؟

فابتسمتُ لها ، ثم تعاظمتُ فى مجلسى ، ونفختُ شدقىّ !

٤

وأسفر صبح اليوم الموعود ، يوم الانتظام فى سلك الدراسة ، فاستيقظتُ من النوم بُكْرَةً ، يستبدّ بى الضيق . وجعلتُ أرتدى حلتى تأهباً للخروج ، وكان « مدبولى » قد أعدّ المركبة الصغيرة لِتُقِلَّنِى إلى المدرسة ، فركبتُ صامتاً لا أنبِس ، وسارتْ بى المركبة تخترق الشوارع والدروب ، وأنا مستغرق فى وجوم وتفكير ، تتراءى لى أشباح مبهمة من مشاهد المدرسة والمعلمين والتلاميذ .

وألفيتُ المركبة تُمْسِكُ عن السير ، فرفعتُ بصرى فإذا أنا تُجاهَ مبنى عتيق أقربَ ما يكون شَبَهاً بالدار التى نقيم فيها . ورأيت « مدبولى » يشير إلىّ أن أنزل ، وهو يقول : توكَّلْ على الله .

فأجبتُه شاردَ النظرات : أهذه هى المدرسة ؟

ونزلتُ عن المركبة ، آخذاً طريقى إلى الباب ، فواجَهَنى البوّاب ، وهو يلوّح بكميه الواسعين ، مُهيباً بالتلاميذ أن يسارعوا إلى الدخول فى صوت جهير ، تتجلى فيه الإِمْرة والسيطرة .

ودخلتُ مع الداخلين إلى الفِناء ، فألفيتُ حديقة فسيحة سامقة الأشجار ، والتلاميذُ خلالها فى تصايح وتلاعب وتَجْوَال . فوقفتُ

وحدى مستنداً إلى جذع شجرة ، أراقب مَنْ هُمْ حولى من الرفاق . وطالت وقفتى وأنا على هذه الحال ، فأحسستُ فى دخيلة نفسى هاتفاً يدفع بى إلى الهرَب !

وفيما أنا جامد فى وقفتى ، عرَتنى هِزَّة مفاجئة زلزلت كيانى ، فقد تتابعت دقات الناقوس ، تدوِّى فى الفضاء بصوت مرهوب . وما كاد الناقوس يمسك عن صليله ، حتى تعالى بعده صوت جَهْوَرىّ أَجَشّ ، يأمر التلاميذ أن ينتظموا فى الصفوف ، فهُرِعتُ آخذاً مكانى فى صف التلاميذ الجُدُد . وكان صاحبُ الصوت الجهورى ما برح يردِّد أوامره متلاحقة لا تكتفى ولا تشتفى ، على حين يتراقص شاربُه غزيراً مسنونَ الأطراف .

ووجدتنى أساير صفًّا من التلاميذ ، نضرب الأرضَ بأقدامنا فى خطوات راتبة ، كأننا ثُلَّة من الجنود يؤدون تمرينهم العسكرىّ .

وفى هذه اللحظة وحدها أيقنتُ بأنى أبتدئ منذ اليوم عهداً جديداً من حياتى ، لا أعرف له كُنْهاً ، ولكنه على أية حال يختلف أيما اختلاف عما سلف لى فى الحياة من عهود .

واحتوانى الفصل مع الرفاق ، فأخذوا مجالسهم على المكاتب مَثْنَى مَثْنَى ، وجلستُ مع واحدٍ من هؤلاء الرفاق على مكتب يلتمع طلاؤه الجديد .

وما أسرع أن تَمَّ بينى و بين جليسى تعارف وثيق ، فانبرى فى جرأة ومصارحة يُفْضِى إلىّ من خاصة شأنه ومن أحوال أسرته بما لم أكن أتوقع أن يُذِيعَه لى ، على حداثةِ عهده بى .

ونبتتْ بينى و بين هـذا الرفيق أُلفة محببة ، فلاطفتُه ببعض ما حشوتُ به جيبى من حَلْوَى أفانين .

وآذنتْ الحصةُ الأولى بالانتهاء ، وتبعَتْها الحِصَصُ الأخرى ، وكانت على تعدُّدها متشابهة ، إلا فيما كان من اختلاف المعلمين .

وانقشعتْ عن نفسى تلك الرهبة التى كنتُ أعانيها ساعةَ قدمتُ على المدرسة ، ولما خرجنا فى فترة الغَدَاء إلى الحديقة ، لزمتُ رفيقى « خيرى » ألاعبه بكرته الصغيرة . وكنّا على مائدة الغَـدَاء جنباً إلى جنب ، واسترعى انتباهى ضابطٌ دائب الحركة ، ضاحكُ الأسارير ، ينادونه باسم « محيي الدين افندى » ، جعل يعلمنا أدبَ المائدة فى اغتراف الطعام ، وتوزيعه ، وتناوله . فَأَنِسْنَا به ، وامتثلنا لتوجيهه ، فى رضا و إقبال .

وكاد اليوم أن ينتهىَ بسلام ، لولا ذلك الحادثُ الذى تمخضتْ عنه الحصـة الأخيرة . . . إنها حصة الإملاء ، المعلم فيها رجل عَبُوس القسمات ، متنمرِّ النظرات ، لايفتأ يَهْذِر و يزمزم ، ولا يملّ إصدار أمره إلينا أن نسكُتَ و إن كنا جميعاً فى سكوت !

ولاحتْ منى لفتة إلى رفيق « خيرى » فلمحتُه يغضّن من جبينه ، ويعوّج شدقيه ، ويمطّ شفتيه ، كأنه يحاكى سَحْنَة المعلم ، سخريةً به ، وزرايةً عليه . وكان المعلم وقتئذ مصروفاً إلى التصحيح فى إحدى الكراسات ، مكبًّا عليها ، لا يكاد يَحيدُ عنها ببصره ، فانسلتْ من فمى ضحكة على حين غفلة ، فرفع المعلم رأسَه عن الكراسة ، محتقنَ الوجه ، باديَ الغضب ، وقال فى صوت ينذر بالشر : من الضاحك ؟

فازداد الفصل سكوناً إلى سكونه ، ورفرف قلبى بين ضلوعى، حتى خُيِّلَ إلىّ أن خفقاته ستكشف عن أمرى . وأعاد المعلم سؤاله ، ولكنه لم يظفر من أحد بجواب . ولاحظتُ أن شفته ترتجف ، فتفصّد من جبينى العرق ، ورأيت المعلم يخطو خطوة حاسمة ، وهو يقول :

إذا لم يخبرنى أحدُكم باسم التلميذ الذى ضحك ، توليتُ ضربكم جميعاً ، لا أُفْلتُ منكم أحدا .

فسمعتُ صائحاً من خلفى يقول : إنى أعرفه يا افندى .

— من هو ؟

— هـذا .

وأحسستُ كأن إصبعَ التلميذ تخترق رأسى ، وهو يشير بها إلىّ .

وتوخّانى المعلم قائلا : أأنتَ الضاحك ؟

فاضطرب لسانى بقولٍ غير مبين . فإذا بيـد المعلم تهبِط على أذنى فتفرُكها وتعرُكها ، وظل كذلك حتى قام فى ذهنى أن الرجلَ يحاول اقتلاعَها من مَنْبِتها ، وأنا أتلوّى كاتماً ما يَجيشُ فى النفس من ألم .

وتركنى المعلم ، راجعاً إلى مكانه ، وأنا أشعر بأن أذنى قد انقلبت جَمْرَةً من النار تتضرّم ، وأنها قد انخلعت من مستقرّها وأوشكت أن تسقُط ، وجلستُ ناكسَ الرأس ، وما لبثتُ أن استبدَّ بى بكاء كَظِيم ، فجعلت أفتش عن منديلى ، فلم أجدْ له من أثر . فمال علىّ رفيقى « خيرى » يدسُّ منديله إلىّ .

وانقضت الحصة ، وتهيأنا لمبارحة الفصل ، فوجدت « خيرى » يشير إلى أحد الرفاق ، وهو يقول لى :

انظر إلى هذه البَطّةِ التى تتأبَّطُ كتباً !

فالتفتُّ حيث أشار ، فإذا هو يقصِد « الزغبى » ذلك التلميذ الذى وَشَى بى عند المعلم ، فنالنى من جَرّاء وشايته ما نالنى من عقاب .

وسدّدتُ إلى « الزغبى » نظرة شزراء ، وأنا شامخ الأنف ، ثم ملت على رفيقى ، فانطلقنا معاً ضاحكَيْنِ فى سخرية واستهزاء .

وما هى إلا أن راعنى « الزغبى » هاجماً علينا بجِرْمِه العريض ، وذراعيه القويتين ، وجعل يَلْكمنا فى جسارة وعنف . فأما أنا فقد

مَنَعَتْنِي الدهشة أن أردَّ العدوان بمثله ، وأما رفيقي فقد انبرى يُقْسِم لَيشكُونَّ « الزغبي » إلى الضابط ، ولَيُرِيَنَّه كيف تكون العُقْبَى . بيد أننا حين مررنا بالضابط في مُنْصَرَفِنا من المدرسة ، فطنتُ إلى أن « خيري » يَحُثّ خطاه ، ليتجنبَ مرأى الضابط ، كأنه لا يشهدُ له ظلا .

وكذلك أدبرتُ عن المدرسة ساعةَ العصر ، كما أقبلتُ عليها في رَوْنَق الصبح ، وأنا في كلا الوقتين منقبضُ الصدر ، مهمومُ الفؤاد .

وكان « مدبولي » على مقربة من الباب ، واقفاً بالمركبة ، يفرقع بسوطه ، إعلاماً لي بمكانه . فقصدتُ إليه ، وصعدتُ في المركبة ، يغشاني صمت . فابتدرني بقوله : كيف حالك ؟ ألستَ مسروراً ؟

— مسرور . . .

وإذا بي أسمو بيدي إلى أذني أتحسَّسها ، على غيرِ عَمْد . وجعلتْ المركبة تسلك الطريق ، وأنا في غمرة من صمتي ، شارد الخطرات .

وبغتة شعرتُ بحركة على سُلَّم المركبة ، ولمحتُ يدا تتشبث بمدخلها ، وما هي إلا لحظة حتى تبينتُ « العَيُّوطي » صبيّ البستاني الطريد يقفز إلى داخل المركبة ، ويأخذُ مجلسَه بجانبي في صفاقة واجتراء . فثارت بنفسي غضاضة واشمئزاز ، ولكن سرعان ما سمعتُه يقول :

متى أرسلوك إلى المدرسة ؟

واستبان لى أن صوتَه قد اخشوشن أكثر مما كان ، وأجبتُه :

هذا أولُ يوم لى فى المدرسة .

فلَوَى رأسه إلى الطريق ، وقذف من فمه بصقة غليظة ، ثم مسح شفتيه بظهر يده ، وهو يرسل ضحكة شَوْهاء ، وقال :

أما أنا فأشتغل عند عَلّاف . . . خدمة طيبة . . . خير من بيتكم !

فشدّ « مدبولى » عنانَ المُهْر ، يقف المركبة ، واستدار يرمى « العيوطى » بنظرة حامية ، وهو يأمره أن ينزل من فوره ، ولمح « العيوطى » سوط « مدبولى » يهتزّ فى يده ، فتكلف ضحكة ساخرة ، وقفز مغمغما تطويه زَحْمَة الطريق .

وتابعت المركبة سيرها ، وأنا أفكر فيما صنع « مدبولى » مُعْجَباً بموقفه العظيم .

و بلغتُ المنزل ، وما إن وطئتُ عتبةَ الردهة ، حتى استقبلتْنِى زوج أخى فى تشوّق وحنان ، وكانتْ جالسة هى والحاضنة « مسرات » تنتظران أَوْبَتِى ، فارتميتُ على صدر زوج أخى وأخفيتُ فيه وجهى ، وأنا أجدُ نفسى أتعلق بها ، كأنى ألتمس عندها الخلاصَ مما أعانيه ، فرأيتها تستجيب لى ، وتضمنى إليها ضَمَّة إشفاق ، ثم إذا هى ترفع وجهى

إليها ، وتحدّق فىّ ، كأنها تستكنه ما بطن من أمرى ، ثم قالت :

ماذا بك يا حبيبى ؟ أجبنى . . .

فطأطأتُ رأسى ، أخفيه فى صدرها ، وأنا أزداد بها من تشبُّث ، فسمعتها تقول للحاضنة « مسرّات » :

الولد مكروب ... لابد أن يكونَ قد ضر به أحد .

فصرختُ باكياً أقول :

لم يضر بنى أحد . . . لم يَشُدَّ أُذنى أحد !

٥

لم يَمْضِ علىّ فى المدرسة أسبوع ، حتى انعقدت الألفة بينى و بين « الزغبى » ، فكان هو و « خيرى » صديقىَّ المختارَيْن .

وحل « الزغبى » منا مَحَلّ الزعامة ، يفرِض علينا ما يرتئيه ، فنذعن له بالطَّوْع . إذا خرجنا نلعب ، أَلْزَمَنَا أن نمارس ألعاباً بِعَيْنِها ، و إن لم نكن نَهْوَاها . و إذا صافَى بعضَ الرفاق ، أو عادَى منهم أحدا ، أرادنا على أن نكونَ له تبَعاً . و إذا لم يَرُقْه صنيعٌ من معلمى المدرسة ، انتصر بنا لتأييدِ ما يَعِنّ له من رأى ، حين يتحدّث إلىّ جموع التلاميذ .

فأما « خيرى » فكان لا يَمَلّ الإفضاء إلى بأسرار بيته وخفايا أهله . حتى ثَقُلَ على سمعى حديثه ، وعجبتُ له : كيف لا يمسك لسانهُ عن شئونه الخاصة ؟ وكيف لا يمل التَّكرار والترديد ؟ وعلى مرّ الأيام توثقتْ بيننا عُرَا الصحبة ، فكنا على الدوام ثالوثا يَسُودُه الوِفاق . الصبحُ يجمعنا عند مركبةِ « محمد أغا » بائعِ الحلوى وأدوات المدرسة ، وهو رجل حادُّ اللهجة ، سريعُ الغضب ، على ما فيه من سذاجة وغفلة . وكان « الزغبى » يتفنن فى مشاكسته و إثارة غضبه ، حتى يلتفَّ الناس حولهما يتفرجون و يتضاحكون ، ولكن سرعان ماينتهى الأمر دائما إلى صلح وسلام ، فيتقدم « الزغبى » ليشرئبَّ إلى رأس « محمد أغا » ، فيقبِّلهُ مرات ، على حين يغمغم الرجل بقوله :

سامحْتُك يا بنى . . . هداك الله يا بُنَىَّ !

وكان هذا المنظر يقع من نفوسنا موقع الِارتياح ، فلا نسأم شهوده على تَكراره .

وتعودتُ حياة المدرسة ، على تواصل الأيام ، وأصبحتْ مألوفة لى . وكان مما يجعلها حبيبة إلىّ ذلك الضابطُ المسمَّى « محيي الدين افندى » . فقد أشعرنى بأنه أب شفيق يحنو علىّ حنوّه على ولده . وكثيراً ما كان يفاكهنى بِصُوَرٍ هزلية يَرْسُمُها لى بقلمه ، وذات مَرة قال لى :

إن لك أذناً تشبه أُذُنَ « سرحان » .

فقلتُ له : ومن « سرحان » هذا يا افندى ؟

فأخرج دفتره الصغير الذى كان يلازم جيبه ، وأَجْرَى القلم فى ورقة منه يَمْنَةً ويَسْرَةً ، ثم قال لى : انظر . . .

فتطلعتُ ، فإذا أنا أرى أمامى رسماً سريعاً لرأس حمار ، وسمعتُه يقول لى : هذا هو « سرحان » . . . حمارى الصغير !

فأغرقتُ فى الضحك ، وأنا أقول : أعندك حمار يا افندى ؟

ــ حمار صغير . . . حجمه شبر فى شبر . . . وهو صديق بنتى « فتحية » . . . أتودّ أن تراه ؟

ــ يسرنى أن أراه .

ــ نذهب معاً لرؤيته بعد انتهاء الدروس .

فشمِلَتْنِي فرحة هزتْ أقطار نفسى ،ولكننى ما لبثتُ أن استغرقتُ فى التفكير لحظة ،ثم قلتُ للضابط : وصديقاى «خيرى» «والزغبى» ؟

ــ نذهب جميعا ... هل تَسَعُنا مَرْكَبَتُكَ ؟

ــ كلَّ السَّعة .

وانطلقتُ أتفقَّد « خيرى » و « الزغبى » لأَزُفَّ إليهما البشرى ، وَخُيِّل إلىّ أن الحصص تطول أكثر مما هو مقدَّر لها من وقت ، فكنت أُزَجِّيها بكل وسيلة ، وأنا ذاهبُ الصبر .

وأخيراً غادرْنا المدرسة ، فأَقَلَّتنا المركبة جميعاً إلى بيت الضابط « محيي الدين افندى » . وفى أثناء الطريق ، كان هو يجاذب « مدبولى » أطراف الحديث ، مُفْسِحا لنا مجال المعابثة والمِزاح .

وسمعْنا « محيي الدين افندى » يقول للسائق :

مكانَك . . . هذا هو البيت .

وَسَبقَنا بالنزول من المركبة ليرشدنا إلى الطريق ، واجتزنا بوابة عتيقة ، فاحتوانا فِناء صغير تنظر إليه نوافذُ الحجُرات ، واسترعت عينى شجرة عجفاء ، شُدَّ إلى ساقها جحش يضرب لونه إلى الحمرة ، فتدانينا منه نتطلع فى شغف ، ولكن الجحش لم يَأْبَه لنا ، فقد كان مصروفا إلى برسيمه يعتلف ، فصفق « محيي الدين افندى » منـاديا :

« فتحيـة » .

وما هى إلا أن رأيناهـا تـنزل إلينا ، فلمـا أبصرها الجحش ، رفع إليها رأسه ، وجعلَ يَقْلِبُ لهـا شفتيه ، كاشفا عن أسنانه العاجيَّـة المرصَّعَة ، فشَمِلَتْنا فورة من الضحك .

وتقدم «محيي الدين افندى» يقول لابنته : هؤلاء ضيوف ظرفاء ، فالعبوا معا . . . واحرِصِي على أن تكونى ذاتَ لطف وذوق .

وأدبَرَعنَّا يصعد الدَّرَج ، وبقينا على مقربة من الجحش نتوسَّمه ، وشهدْنا « فتحية » تمدّ يدها بقطعة من السكر إلى « سرحان » فما أسرع أن التهمها ، والبِشْر يلتمع فى نظراته .

كانت « فتحية » صبية سمراء ، أنيسة المُحَيَّا ، يَرِفُّ على ثغرها ابتسام . وكانت نظيفة الثوب ، عليها ميدَعَة أنيقة حسنة الطراز ، تترامى بين كتفيها ضفيرة يَزِينُها شريط وردىّ .

وأطبق بيننا صمت ، فَرُحْتُ أرجع البصر بين رفيقىّ ، فإذا نحن الثلاثة على حال سواء من السهوم والجمود .

واشتدّ تعجبى من « الزغبى » كيف خَذَلَتْه جرأته المعهودة ، وكيف خانته ذلاقة اللسان ؟

وشعرتُ بأن موقفنا فى غاية من الحرج ، وأننا فى حال لا نُغْبَطُ عليه . ولمحتُ « فتحية » تخالسنا النظرات بين حين وحين . وبغتة دنت من الجحش تَقْرُصُه ، فإذا نحن نسترسل فى تضاحك . وتحمستْ الفتاة ، وأغراها ما رأته من تضاحكنا ، فجعلتْ توالى قرص الجحش فى نَشْطَة ومراح .

وألفيتُنى أقترب من الفتاة قائلاً : لماذا تَقْرُصينه ؟

فأجابتنى : لأنى أُحبه .

وشعرتُ بأن يدى تنبسط إلى رقبة الجحش ، أحذو حَذْوَ الفتاة فى القرص ، فتبعَتْنِى يد « الزغبى » ويد « خيرى » تصنعان كما أصنع ، فرفع الجحش رأسه إلينا ، وفى عينيه دهشة وعجب ، وجعل يضرب الأرض بحافره ، يعلن تأفُّفَه ، فلم نكترثْ له ، وتمادَيْنا فى قرصه ، والطرب يهزّنا جميعاً .

وأخيراً عِيلَ صبر الجحش ، فأطلق من حَلْقِهِ بغتة نهيقاً عالياً ، تَفَزَّعْنا منه كل التفزُّع ، وتفرقنا عنه فى صَخَب وضجيج .

والتفتت إلينا « فتحية » تقول : أتحبون أن تعتلوا ظهره ؟

فصحنا معاً : نعم ، نعم !

فقالت : سأريكم كيف تركبونه .

ثم فَكَّتْ وَثَاقَ الجحش ، وما أسرع أن استوت عليه فى مهارة وخفة ، ودارت به فى الفِناء دورة ، وعيوننا بها موصولة ، ثم نزلتْ عن الجحش ، وأشارت إلىَّ أن أتقدم . ولاحظتُ أن « الزغبى » يريد السبق إلى الركوب ، وكنتُ على وَشْكِ أن أدع ذلك له ، ولكن باعثاً لا أعرف مَأْتاه ، دفع بى نحو الجحش ، فامتطيتُه فى جسارة أدهشَنِى أنها تواتينى ، وبدا على « الزغبى » ضِيق لم يستطع أن يكتمَه ، فأما أنا فقد شاع فى نفسى حبور وغبطة ، ودرتُ بالجحش دورتين فى

فِنَاءِ البيت ، والفتاة ناظرةٌ إلىّ ، تتهلّل وتصفّق . وما كدت أتخلّى عن ظهر الجحش ، حتى وجدتُ « خيرى » يَخْلُفنِي عليه ، فيدور دورته ، فلما نزل شَخَصْنا إلى « الزغبى » فإذا هو واقف لا يتحرك ، فأهابتْ به « فتحية » أن يأخذ نَوْبتَه ، فأبَى ، وقصد إلى الشجرة يرتكن إليها ، وهو يهز قدميه .

وفى تلك الأثناء بدا « محيي الدين افندى » يحمل صَحْفَة ملئت بالنَّقْل من بندق وجَوْز ولَوْز ، ولاحظ الرجل أولَ وهلة أن « الزغبى » معتزل عابس الوجه ، فجذبه من يده يقرّبه إلينا فى ملاطفة . ثم أخذ يوزع علينا النَّقْل ، ويدعونا إلى التنافس فى أكله ، متفنناً فى الدُّعَابة والمفاكهة .

وظهر السائق « مدبولى » ينبّهنى إلى أننى أطلتُ التغيُّب ، وأنه يخشَى من ذلك قَلَقَ الأُسْرَة علىّ . فتركْنا البيت ، وأنا فى نشوة من تلك الجلسة الطيبة الأنيسة التى نعمتُ بها الساعة .

٦

تكررت زوراتُنا لبيت الضابط ، حتى استوثقتْ صداقتُنا « لفتحية » . وأَلِفَ الجحشُ مَرْآنا ، فكنتُ أُغدق عليه قِطَع السكر ، وكلما قَدِمْتُ عليه رفع إلىّ رأسه ، وراح يقلب شفتيه ، ويكشف عن أسنانه المرصَّصة ، فأُلقِمُه قطع السكر فى مسرّة وارتياح .

وكان « الزغبى » لا يفتأ يحاول أن يأخذ بيننا مكان الرياسة فى بيت الضابط ، ولكن التوفيقَ لم يُسْعِفْه يوماً ، فكان يخيب فى سعيه مرةً بعد مرة ، حتى لقد جعلتْ شخصيتُه تتضاءل وتتقاصر ، فأصبحت هذه الزوراتُ لا تطيب له ، ولا تقع منه موقع الرضا .

وفى أصيل يومٍ كانت المركبةُ تمضى بى عائداً من المدرسة إلى منزلى ، فباغتتنى رغبةٌ فى زيارة « فتحية » ، ووجدتُنى أميل على السائق « مدبولى » قائلاً له :

مِل بنا إلى بيت الضابط لأرى الجحشَ « سرحان » .

فنظر إلىّ فى ابتسام ، وفرقع بسوطه ، وقال :

أمرك يا « سامى بك » !

وبينما نحن فى الطريق ، نتوخَّى بيت الضابط ، لاح فى مُخَيِّلتى

طيف صديقىَّ « الزغبى » و « خيرى » . . . فساءلتُ نفسى : أكان علىّ أن أؤخِّر زورتى اليوم ، حتى أخبرَهما فأصحَبَهما غدا ؟

وَهَمَمْتُ أن أرغبَ إلى السائق « مدبولى » فى أن يَحِيدَ بالمركبة إلى منزلى ، ولـكننى لم أفعل .

و بلغتْ المركبةُ بيتَ « فتحية » فرأيتُها بالباب ، وما كادتْ تلمحنى حتى هُرِعَتْ إلىّ ، وهى فرحانة طروب .

وسمعتها تسأل : أين « خيرى » و « الزغبى » ؟

فعاجَلَتْنِى رَبْكة ، وجعلتُ أَخْلِط فى الجواب ، وأُزَوِّر المعاذير ، فاجتذبَتْنِى من يدى ، وهمستْ لى :

نلعب وحدنا . . . هــذا أحسن !

فصادف جوابُها هوًى من نفسى .

وسارتْ بى إلى فِناَء البيت نُحَيِّى « سرحان » . . . وأَظَلَّنَا صَمْت ، على غير ما أَلِفْنَاه معا ، إذ كانتْ هــذه أولَ مرة نتراءى فيها وحدَنا لا يَشْرَكُنا فى المجلس أحد .

و بعد فترة قلتُ لها : لماذا لا تزورين منزلى كما أزورُ منزلَك ؟ ... عندنا حديقة رحيبة تتسع للجرى والتَّوَاثُب ، وفيها مخابىء نستطيع أن نلعبَ فيها لُعْبَةَ الِاستخفاء .

— إنى ماهرة فى هذه اللُّعبة . . . وستعرف صدقَ قولى .

— وعندنا نافورة يسبَح فيها البط والإِوَزّ . . . وفى أقصى الحديقة جُبّ .

— جُبّ ؟ !

— جُبّ مُخِيف ، كانوا يرمون فيه اللصوص والمجرمين .

— أحقًّا ؟ . . . وَدِدْتُ أن أرى ماذا فيه .

— أنا لم أدخله فى حياتى . . . إن العفاريت تتصايَحُ فيه طُولَ الليل .

— ليتنى أسمعُ أصواتَ هذه العفاريت !

— ألا تَفْزَعِين ؟

وفى هذه اللحظة تعالى صوتٌ ينادى « فتحية » ، فقالت لى :

جَدَّتى تَدْعُونى .

وصَعِدَتْ مهرولة ، وما لبثتْ أن هَبَطَتْ إلىّ تقول :

جَدَّتى تَبْغى أن تلقاكَ .

فرافقتُها صاعداً إلى الطبقة العُلْيا من المنزل ، و بينما نحن على السُّلَّم حدثَتْنِى الفتاة أن جَدَّتها مكفوفة البصر ، و إن كانت تضطلع بشئون المنزل ، ولا يُعْيِيها أن تَطُوف فى الحجُرات كأنها مبصرة . . .

وأقبلْنا على رَدْهة صغيرة تحتوى على أثاث ساذَج ، ولـكنه بادى النظافة ، حَسَنُ الترتيب . وواجهتْنى على المُتَّـكأ الفسيح امرأةٌ بيضاء الثوب ، على رأسها خِمار ناصع البياض ، و بيدها سُبْحَة تَنَقَّلُ حَبَّاتِها بين أناملها وهى تتمتم . وطالعَنى منها وجه سَمْح عليـه إشراق . وإذ أحستْ وجودى نادتْنى باسمى فى تلطف ، ولما دنوتُ منها مدَّت يدَها إلى رأسى ، وجعلت تتـلو رُقْيَةَ بصوت عذب صافى النَّغَم ، وختمت رُقْيتَها تُوَالِى الدعاءَ لى ، وهى تقول :

أنتَ ناجح بإذن الله . . . ستنالُ الشهادةَ على بركة الله !

ثم أجلسَتْنِى بجوارها على المُتَّـكأ ، وأمرت « فتحيةَ » بأن تُعِدَّ لى كُوباً من شراب الليمون ، ثم شرعتْ تجاذبنى الحـديثَ فى شئون المدرسة والمنزل ، واستطردَتْ من ذلك إلى أن تَسْرُدَ علىّ طرَفاً من أحداث طفولتها ، وكيف أخذتْ قسطها من حِفْظِ القرآن . وكان حديثُها طَلِيًّا ممتعاً أنسانى مَرَّ الوقت ، وجعلنى أشعر حين انتهت جلستى معها بأنى أتركها على شَوْقٍ إلى المَزِيد .

وأخذتُ مركبتى قافلًا إلى منزلى ، ولم تزل صورةُ السيدة « هاجر » ـ جَدَّة « فتحية » ـ ماثلةً أمام عينى ، وقد أُلقِىَ فى رُوعِى أنى كنت فى حضرة وَلِيَّةٍ من صفوة الأوليـاء الصالحين الذين اختلفتُ إلى

أضرحتهم فى صُحْبة زوج أخى والحاضنة « مَسَرَّات » .

وفى تلك الأُمْسِيَّةِ وجدتُنِي أَنْفُضُ نفسى متحدِّثًا إلى زوج أخى ، أَصِفُ زيارتى « لفتحية » وما لَقِيتُه فى جلستى إلى السيدة « هاجر » من حفاوة وتكريم ، وما أكّدَتْه لى من أنى ناجح بإذن الله ، وأنى سأنال الشهادة على بركة الله . فَتَطَلَّقَ وجهُ زوج أخى ، واستزادتنى من وصف تلك السيدة المباركة ، ومما خَصَّتْنِي به من طرائف الأحاديث .

وانصرمتْ أيام قلائل ، ورجعتُ أصيلًا من المدرسة إلى منزلى ، فراعنى أن أجدَ « فتحية » هى وجَدَّتها السيدة « هاجر » فى حجرة الاستقبال مع زوج أخى . وعلمتُ أن الحاضنة « مَسَرَّات » هى التى ذهبت تدعوهما إلى هذه الزيارة بإشارةٍ من زوج أخى .

وما أسرع أن أخذتُ بيد « فتحية » ماضياً بها إلى الحديقة ، فلما بدأنا نجوس خلالها ، مالتْ علىّ « فتحية » تقول :

أريد أن أرى الجبّ .

فصحبتُها إلى مكانه ، ووقفنا تُجاهَه لحظةً ونحن فى صمت ، ثم سمعتُها تقول : أحقًّا أنهم كانوا يقذفون فيه باللصوص والمجرمين ؟

— هذا حقّ .

ووجـدتُ الصَّبِيَّةَ تخطو نحو الجبّ ، وأنا دَهِش مأخوذ ، ثم ما لبثتْ أن تخطّتْ عَتَبَتَه ، ووقفتْ ترمى بنظرها فى أرجائه ، واستدارتْ راجعة تقول :

مكان مظلم ، فيه بئر عميقة المهوَى، لايبعث منه شىء على خوف !

٧

ترادفتْ أعوام ثلاثة ، وأنا فى هذه المدرسة مع صديقىَّ « خيرى » و « الزغبى » نتلازم ولا نفترق . وكانت حظوظُنا فى الحياة متشابهة ، فإذا كان رسوبٌ فى الاِمتحان رَسَبْنَا جميعاً ، وإذا كان نجاح فُزْنَا معاً .

ولم تكن أيامُنا تخلو من مشاحَنات تَشُوب ما بيننا من صفاء ، ولكن كان يكفى أن يداعبَ أحدُنا أخاه بكلمة ، أو يجاذبَه بنكتة ، حتى يزول الخِصام ، ويشملَنا الوِئام .

أما « فتحية » فقد أصبحتْ صلتى بها أوثقَ ما تكون ، أزورها وتزورنى ، وكذلك توثقتْ الصلةُ بين زوج أخى والسيدة « هاجر » ،

فهما تتزاوران وتأنَسُ كلتاهما بصاحبتها كلَّ ائتناس .

وخَلَا بيتُ « فتحية » من « سرحان » ، فقد كَبِرَ ، وباعه « محيي الدين افندى » لأحد السَّقَّائين فى الحيِّ الذى يقيم فيه ، فكان السَّقَّاء يَشُدّ الحمار إلى عَرَبَةٍ تحمل قِرَبَ الماء ، فيظلّ مُطَوِّفًا بالحارات والأزقَّة طولَ النهار .

وقد يَحْدُث أن أكونَ أنا و « فتحية » فى فِناء بيتها نلعب ، فنسمع نَهِيقَ الحمار ، فى بعضِ الطريق ، فتغشانا كآبَة ، ونُحِسّ كأنه يُهِيب بنا أن نعينَه على أمره ، وأن نواسيَه فى محنته ، فنخرج له نتلقّاه فى شغف وتَحْنان ، ولا تُعَتِّمُ « فتحية » أن تُلْقِمَه قطع السكر فى رِقَّة وملاطفة .

والتحقتْ بمنزلنا خادم نَيَّفَتْ على الخمسين ، تُدْعَى « أم خُضَيْر » ، وَكَلَتْ إليهـا زوجُ أخى الإشرافَ على مخزن المَئُونة ، وكانت امرأة صَخَّابة سَليطة ، لايَكِلُّ لها لسان ، ما إن تفرغُ من مشاكستها للطاهى حتى يَنْشَب بينها و بين سائر الخدَم عِراك . وكثيراً ما فزَّعَنى صياحها من نومى ، فأنهضُ فى سخط . ومرّاتٍ أقسمتُ أن أشكُوَها إلى زوج أخى ، ولأمر مَّا تهيَّبْتُ أن أفعل .

وكانت زوجُ أخى تَحْمَد لهـا مشبوبَ نشاطها فى خدمة الدار ،

ودَأَبِها فى رعاية المرافق ، دون حَفْزٍ أو توجيه .

وعلى الرغم من سلاطتها وشغبها ، لم يكن الخدم يضيقون بها ذَرْعا ، إذ كانت تؤنسهم فى ساعات صفوها بألوان من الفاكهة والمزاح .

ويوماً قَدِمَتْ علينا « فتحية » هى وجدّتها ، لِتَبِيتَ كلتاهما ضيفين فى البيت ، وطاب السهرُ لى مع « فتحية » بعد العَشاء ، فلما أثقل علينا النوم ، ولم نستطع له غِلابا ، قمتُ أرافقها إلى مَخْدَعِها ، فى حجرة الضيافة ، وكانت مستقلة فى جَناح بعيد . فَجُزْنا فى مسيرنا بحجرة « أمّ خُضَير » ونحن نخطو على هِينَةٍ ورفق ، فتناهتْ إلى سَمْعينا أصوات غير مألوفة ، فوقفنا بباب الحجرة ننصت ، وما لبثتُ أن سددتُ نظرى فى فُرْجَةِ المفتاح ، فرأيتُ عَجَبا : « أمّ خُضَيْر » ترقص فى تبذّل ، ومن حولها جمع الخادمات يطبّلن ويصفقن ويغنّين ، وزَحَمَتْنِى « فتحية » تريد التفرّج ، وأخذتْ مكانى فى تشوّف وتعجّل . ولكن سَرْعَانَ ما تخلت عن الباب ، وهى تبادلنى النظراتِ فى دهشة وتخاجُل . وتابعْنا سيرَنا صامتَيْن .

كانت « أم خضير » زوجاً لرجلٍ يُسَمّى « بابا درويش » ، وقد أطلق عليه الناس هذا اللّقَب ، لأنه كان يضع على رأسه طُرْطُوراً متطاولا ، على نحو ما يلبس « الدراويش » . وكنتُ أراه يتردَّد على منزلنا زَرِيَّ الملبس ،

يلفّ على طُرْطُورِه عمامة خضراء ، وفى كل مرةٍ يطرُق الدار يخرجُ إليه « بشِير أغا » ليناولَه مبلغاً من المال ، تمنحُه زوجُ أخى إياه . وأذكر أنى لمحتُه غيرَ مرة يقصد إلى باب الحرَم ، فى مُسارقة وتلصّص ، فتلقاه زوجُه « أمّ خُضَيْر » وتُلْقِى إليه صُرّةً لا أدرى ماذا تحْوِى ، وتناقشه فى إمرة جارحة وتسلّط مُذِلّ ، فيتضاحك الرجل فى عَبَث وتهريج ، وينصرف حاملا الصُّرّة ، غَيْرَ لَاوٍ على شيء ، فيتبعه من يصادفُه من الخَدَم ، وهم يماجنونه ويناوشُونَه فى غير احتشام .

وحلّ يوم مرضَتْ فيه الحاضنةُ « مَسَرّات » ، إذ تورّمَتْ قدماها ، فلم تَعُدْ تقوَى على النهوض . ولزمتْ حجرتَها لا تبرح المَخْدَع ، فاضطلعتْ « أم خضير » بما كانت تضطلع به الحاضنة من شأنى . والحقّ أنها كانت تؤدّى عملها على خير ما يجب ، ولا سيما إذا اقتضى الحال دقةً فى الرعاية والتعهّد ، فإن انحرفتْ صحتى ألفيتُ « أم خضير » أنشَطَ ما تكون فى خدمتى وتمريضى . ولكنها كثيراً ما شارَكَتْنِى غيرَ مَدْعوّةٍ فى طعامى ، وطالما قرّبتْ لى صَحْفَةَ الحساء خاليةً من الدّجاجة ، مُدّعِيَةً أن القطّ التهمها ، وأنها لن تُنْجِيَه من العقاب !

٨

وكانت « تهانى » تزورنا مع جدَّتها « إجلال هانم » فى الحين بعد الحين ، والتقتْ فى بعض زَوَرَاتها « بفتحية » ، فتمَّ بينهما التعارُف ، ولـكن « تهانى » لم تكن تهبِط من عليائها لتلاعبَ « فتحية » أو تتبسَّط معها فى الحديث .

واتفق لقاؤهمـا فى منزلنا ذاتَ يوم ، فأنـكرتْ « فتحيةُ » من « تهانى » تحيتها الجافية المتعالية ، ولم تلبثْ أن استَخْفَتْ ، فلم يستَبِنْ لها فى المنزل ظِلّ ، وما توانيتُ فى البحث عنها ، بيد أنى لم أجدْها إلا حين تحَاَقْنَا جميعاً حولَ مائدة الغَداء .

وفَطَنْتُ إلى أن « تهانى » تُخَالِسُ « فتحيةَ » نظرات سُخْرِيةٍ واستهزاء ، ثم تميل على جَدَّتها تُسِرّ إليها بعض الـكلمات ، وشعرتُ بأن « فتحية » تغالب التبرّم والضيق ، على تظاهرها بالسكينة ، كأنها غيرُ مبالية .

و بعد أن استوفَيْنَا قِسْطنا من الطعام ، تركَ الجمعُ مقاعد المـائدة ، وخلا المـكانُ لنا نحن الثلاثة ، أنا و « فتحية » و « تهانى » .

وخَصَّتْنِي « تهانى » بالحديث ، قائلةً فى صوتٍ غيرِ جَهِير :

فتاة من عامَّة الناس ، لا تليقُ بما لنا من مَقام !

فأحسستُ بأن أوصالى قد جَمدَتْ ، وأنى إن أطلقتْ لسانى أسمعتُ « تهانى » ما تكره ، ورأيتُ « فتحيةَ » تنهضُ صامتة تريد الخروج ، وسمعتُ « تهانى » تتابعُ قولَها فى صوت أجهرَ من ذى قبل :
انظُرْ إلى جَوْرَبِها ... جورب ولا كالجوارب . . . آخرُ بِدْعَة!

وانبعثتْ ضاحكةً فى توقُّح ، ولا أدرى كيف احتبسَ الكلامُ فى فمى ، فلم أنبِسْ ، على حين أنى كنتُ أغلى كالمِرْجَلِ الفوّار .

ورمقتْنا « فتحية » بنظرة حادّة ، وانصرفتْ فى خُطًا سِراع . وعلمتُ فيما بعدُ أنها غادرتْ البيتَ مع جَدَّتِها السيدة « هاجر » بعد الغَداء بقليل . فلبثتُ وقتى مع « تهانى » ضائقَ الصدر ، كئيبَ النفس ، على الرَّغْم مما حاولتْه هى من إيناسى وابتعاثِ نَشْطَتِى للهو والمِرَاحِ .

وما إن آذنتْ الشمسُ بالغيوب ، حتى انصرفتْ من الدار « إجلال هانم » ومعها « تهانى » ، فشعرتُ بعد انصرافها كأنما انزاح عن كاهلى عِبْء ثقيل . ولكن طيفَ « فتحية » ظل يلمَح أمام عينى ، وكأنها تعتِبُ علىَّ فيما كان من سكوتى ، وتسألنى : كيف وقفتُ مكتوفَ اليدين إزاء الإهانةِ التى ألحقتْها « تهانى » بها ؟

وحان موعدُ النوم ، فرأيت « أم خضير » تطرُقُ حجرةَ مخدعى لِتُسَوِّىَ الفراش ، وتملأَ قلّة المـاء ، وساوَرَتْنِى فـكرة لم أملك لها دفعاً ، فاقتربتُ من المرأة ، وهمستُ أقول لها فى ملاينة ورجاء :

أترضَين أن تؤدِّى لى خدمة هَيِّنَة ؟

فنظرت إلىّ ، وهى تبتسم ، ثم قالت :

على العين والرأس . اطلبْ تجدنى خادمتَك .

فأحجمتُ عن الـكلام لَحَظات ، وأنا مُطأطئ أفرك إحدى يدىّ بالأخرى ، ثم اندفعتُ أقول : أريد أن تشترِى لى شيئاً . أريد أن تختارِيه من أحسنِ نَوْع . كم قرشاً تطلبين ثمناً له ؟

فرنّتْ ضِحْـكَتُها ، وهى تقولُ معابِثَةً :

كيف لى أن أطلبَ منك ثمنَ شىء لا أعرفُ ما هو ؟

— زَوْج من الجوارب ، من أحسن صنف .

— أفى حاجـة أنتَ إلى زوج من الجوارب ، وصِوَانُكَ مملوء بالجديد منها والقديم ؟

— لا أُريدُه لى . . . أريده . . .

وأُرْتِجَ علىّ ، فلم أَلفِظْ من قول . وشعرتُ بالدم يضطرم فى وجهى ، وسمعتُ المرأةَ تقول ، وقد غمزَتْ بحاجبها :

أَتْمِمْ . . . أتريدُه جورباً نِسْوِيًّا ؟

فغمغمتُ قائلاً : نعم .

فتدانت المرأةُ منى ، وهى تقول ، وقد برَقَتْ عينُها :

لأيةِ الفتاتين تريدُه ؟ . . . لهذه أم لتلك ؟

فأجبتُها محتبسَ الصوت : أُريدُه « لفتحية » . . .

— حَسَناً ، حسناً . . . سأُحْضِرُ لك الجوربَ من أحسن صنف .

وسرعان ما تدانَتْ منى ، ومدَّتْ يدها إلى خَصْرى تُدَغْدِغُنى ، وهى تقول : طِبْ نفسًا وانتعش . . . وخَلِّ عنك الخَجَلَ والِا كتئاب .

وفى غدى ، وأنا خارجٌ من المدرسة أصيلا ، أَعْتَلِى المرْكَبَة ، ناولنى السائقُ « مدبولى » لَفِيفَةً صغيرة ، وأخبرنى بأن « أم خضير » أَوْصَتْه بأن يُسْلِمَهَا إلىّ ، فأحسستُ بقلبى دائبَ الخفقان ، وجعلتُ أقلِّبُ اللفيفة بين يدىّ ، وأنا مهتاج ، ولطالما هَمَمْتُ بأن أفتحها لأتبيَّنَ ما تحويه ، ولكننى ملكتُ نفسى ، وآثرتُ أن أُبْقِيَ اللَّفِيفَةَ على حالها ، وقلتُ للسائق « مدبولى » :

خُذْ طريقَك إلى منزل « محيي الدين افندى » . . .

وما كِدْنا نصل ، حتى قفزتُ من المركبة عاجلاً إلى المنزل ، فصادفتُ « فتحية » فى الفِناء ، بين يديها ديباجَة تُعْنَى بتطريزها ،

فلما أحسَّتْ مَقْدَمِي ، أَلْقَتْ عليَّ نظرة عابرة ، وانكفأت على ديباجتها كأن لم ترَ شيئاً . وفى هذه اللحظة وجدتنى كأنما صُبَّ على رأسى دَلْوُ ماء بارد ، فتثاقلتْ خُطاى ، وعَنَّ لى أن أتركَ المنزل راجعاً ، ولكنى لم أملِكْ إلا أن أتقدَّم على هِينَة ، وأن آخذَ مكانى بجوارها ، على دَكَّة الخشب . وشرعتْ أناملى تعبَثُ باللَّفيفةِ معى وأنا صامت ، وشاهدتُ الجورب يَبْرُزُ من جوانب اللفيفة هَفْهافاً رقيق الحاشية ، فاهتزَّ لِمَرْآهُ قلبى ، والتفتُّ عجلانَ إلى « فتحية » ، ومددتُ لها يدى بالجورب فى اهتمام وتحمّس ، وقلتُ :

لقد أحضرتُ لكِ شيئاً يا « فتحية » . . .

فعدلتْ ببصرِها نحوى وهى تقول : لى أنا ؟

وما إن رأتْ الجوربَ فى يدى ، حتى ازورّت عنى ، وبغتةً غطَّتْ وجهها بكفّيها ، واندفعتْ تَنْشِج وتقول محتدّة : لستُ فى حاجةٍ إلى جورب . . . لستُ فى حاجة إلى شىء . . . دَعْنِى وشأنى !

وتحرَّجَ موقفى ، واشتدّ ارتباكى ، فأعدتُ الجورب إلى لفيفتهِ ، وانهمكتُ أعقِدُ اللفيفة كما كانت ، وهَمَمْتُ بالِانصراف ، ولكننى ألفيتُ « فتحية » تتمادَى فى نشيجها ، ويتعالى نحيبُها ، وخَشِيتُ أن يبلغَ الصوتُ أسماعَ جدَّتها ، أو يفاجئنا أبوها فيراها على تلك الحال ،

وحَزَبَنِي أمرى ، فزَوَيْتُ ما بين عينَيَّ ، تستغرقُني الحيرة ، ولمحتُ السائق « مدبولى » يَلُوحُ ويختفى ، وهو يرقُبنا رِقْبَةَ المُتطلِّع ، ثم رأيتُه مقبِلاً علينا ، وهو يقول :

ماذا جَرَى ؟ ماذا لا تتلاعبان ؟

ثم قَصَدَ إلى « فتحية » فربَّتَ كَتِفَها ، وقال لها :

أهذا وقتُ غضب و بكاء ؟ تعالَيْ معى . . .

وذهب بها إلى صُنْبُورِ الماء ، فى أقصى الفِناء ، فغسل لها وجهها ، وجعل يُضاحكها و يلاطفها ، حتى سُرِّىَ عنها ، وعاد بها إلى جِوارى ، وقال لى فى لهجة الآمر : قم فَقبِّلْ رأسها .

وأطعتُ دون جِدالٍ ، فالتفتَ السائقُ « مدبولى » إلى « فتحيةَ » قائلا : لا يصحّ أن ترفُضى هديةً يقدّمها إليكِ أخوكِ .

وأخذَ اللَّفيفةَ منى فقدَّمها إليها ، فتقبلتْها منه ، و إذا هو يقول لها :

جاء دَوْرُكِ . . . قُومى الآنَ فقبِّلِى رأسَ أخيك .

فلم تتمنَّع ، ولبثَ معنا السائقُ « مدبولى » وقتاً يثير تضاحكَنا بمعابثاته ونِكاتِه ، و يدفعُنا إلى الاشتراكِ فى اللعب معاً ، حتى صَفَا ما بينى و بين « فتحية » ، وعادتْ إلى مألوفِ شأنِها من مَرَحٍ و إيناس .

وكنتُ فيما بعدُ كلما لَقِيتُ « فتحيةَ » تطلعتُ فى شَغَف إلى ساقيها ، لأنظرَ ما تكتسيان من جَوْرب ، فألاحظُ أنها اقتَنَتْ جواربَ كثيرة ، وأنها كانت أشدَّ ما تكون عنايةً بتخيُّر ألوانها وأنواعها ، ولكنى لم أرها يوماً تلبَس الجوربَ الذى أهديتُهُ إليها ، ولم يَدُرْ بيننا يوماً مّا حديث فى شأن ذلك الجورب المنبوذ !

٩

هأنذا بعد أربعةِ أعوامٍ أبلغُ السادسةَ عشرةَ ، ومع ذلك فما أزال فى مدرستى الابتدائية المعهودة ، مؤتنساً فيها بصحبة قرينىَّ « الزغبى » و « خيرى » ، نؤلِّف معاً ثالوثَ التلاميذ الكبار أصحابِ النفوذ والسلطان ، يتهيَّبُنا سائرُ أبناء المدرسة ، ويحسُبُونَ لنا ألفَ حِسَاب !

أما « تهانى » فقد سافرتْ بها جَدَّتُها « إجلال هانم » إلى « استانبول » منذ أعوام ثلاثة ، ولم أعلمْ من أمرهما إلا أن « تهانى » أُلْحِقَتْ هنالك بالقسم الداخلىّ فى إحدى المدارس الفَرَنْسِيَّة .

ورَوَّعَنِى يوماً على حينِ فجأةٍ نبأٌ فاجع ، ذلك هو وفاةُ

« محيي الدين افندى » فغَشِيَتْ المدرسةَ يومئذ غاشيةٌ من الأسى ، وراح التلاميذ يتناقلون الحديثَ فى هـذه الفاجعة ناكِسِى الرءوس ، مكتئبى النفوس .

تلقّتْ السيدةُ « هاجر » هـذه الصدمةَ بصبر واحتمال ، ولـكن الحزن كان يَسْرِى فى طواياها ، فينالُ منهـا مَنالَ السُّوسِ من خَشَبٍ غليظ . على أن ذلك الحـادثَ الأليمَ كشف عن مَعْدِنهـا الأصيل وجوهرها الـكريم ، فقد نَشِطَتْ لمواجهة مطالبِ العيش فى إباء وعزَّة نفس . وكان أولَ ما لجأتْ إليه من تدبير أنها انتقلتْ إلى شِقَّةٍ صغيرة فى منزلٍ بحىّ « السيدة زينب » ومارسَتْ نوعاً ملائماً من التجـارة تستطيعُ الِاشتغالَ به ، ذلك هو أن تتنقَّلَ فى بيوت المُوسِرِينَ حاملةً طرائفَ من الأمتعة والثياب وأدوات الزِّينة ، فتبيعها لربَّات البيوت نَقْداً أو نَسِيئة . وكانت « فتحيةُ » ساعدَها الأيْمَنَ فى هذا الشأن ، إلى جانب تَـكَسُّبها بالحياكة والتطريز .

وكثيراً ما كانتْ زوجُ أخى تُضيفُهما أياماً ، وتواليهما بألوان من المَبرَّات ، فأقضى مع « فتحيةَ » أوقاتاً مُؤْنِسَة . وكنتُ أعرف من من نفسى أنى كلما لاقيْتُها شَعَرْتُ بأنى أستطيبُ الحياة ، وأستجيبُ لواجب المدرسة ، وأجدُنى كأنما أُوتيتُ القُدْرَةَ على مغالبـة المصاعب

واجتيازِ العقبات ، فلا ألبثُ أن أفكرَ في قابلِ أيامي ، فيزدحمَ رأسي بشَتَّى المشروعات والخُطَط .

وكنتُ أتحدَّث إلى « فتحية » وأنا شاردُ النظر ، هائم الفكر ، أقول :

حينما نَكْبَر يا « فتحية » سنحقّق معاً عِظام الآمال ، وسننهض بجِسَام الأعمال .

فتنظر إلىّ ، والدهشةُ ملء عينيها ، ثم لا تعتمُّ أن تقولَ في صوت ليِّن النَّبرات : إن شاء الله . . . إن شاء الله .

وكان يحلو لي ، وأنا في ساعةِ استذكاري للدروس ، أن أَسْتَبْقِيَها في حجرتي ، فتعكُف على ديباجتها تطرّز ، وأنا مُكِبٌّ على كتبي وكراساتي .

على أن هذا لم يكن يمنع أن أرفعَ رأسي في الفينة بعد الفينة ، أختلس النظرَ إليها ، فأراها في ضوء المصباح قد تألَّقَ مُحَيَّاهَا فاتن القَسِمات ، فأظل أَتَمَلَّى تلك الفتنة ، يحدوني باعث كمين .

وقد أرى « فتحية » ترفع هامتَها عن الديباجة ، ناظرةً إلىّ ، فتباغتني وأنا أرنو إليها ، فنتبادلُ الابتسام ، ولا نلبثُ أن تعرُوَنا خَجْلَةٌ واضطراب .

وليلةً دخلتْ علينا « أم خضير » ونحن معاً فى حجرتى ، على هذه الحال التى أسلفتْ وصفها ، فجعلتْ تنقّلُ نظرها بين «فتحية» و بينى، ثم همهمتْ :

أما كفاكما شُغلاً ؟ . . . استريحا قليلا . . . رفِّها عن نفسيكما وقتاً . . . المَثَل يقول : ساعةَ لقلبك !

ثم تدانَتْ منى ، وانحنَتْ على أذنى كأنما تريد أن تسرّ إلىَّ الحديثَ ، ولكنها على الرغم من ذلك رفعتْ صوتَها تقول :

لو كنتُ مكانَك لما جلستُ هكذا أنكفئ على مكتبى كشيخ هَرِمٍ ، بل كنتُ أجلس بجانبها أقطِفُ لى من خدِّها قبلة مُنْعِشَة !

فساوَرَتْنِي رَبْكَة ، واضطرم وجهى ، وانعقد لسانى ، فأما « فتحية » فقد نهضتْ من فورها ، وهى غَضْبَى تقول :

ما هذا الكلام الفارغ يا « أم خضير » ؟ . . .

وما عَتَّمَتْ أن غادرت الحجرةَ ، قاقةَ الخطا .

وما إن مضتْ عنى « أم خضير » وخَلَتْ لى أركان الحجرة ، حتى رأيتنى أَعْمِدُ رأسى بيدى ، وأَهِيمُ فى حلم بهيج ترِفُّ فيه تلك القُبْلَة المنشودة التى أطبعُها على خَدّ « فتحية » . . .

وكنت أشعرُ بوحشة حين تنقضى ضيافةُ صديقتى ، ويغيبُ عن عينى مَرْآها ، فأجدُنى مَلُولاً فاترَ الهمة غيرَ مقبلٍ على الدرس والاستذكار . . .

١٠

ولم تكن عينى تَقَع على أخى « حمادة » إلا لِمَاماً ، فإذا لَقيتُه تَجَهَّمَ لى ، وبدا كالحَ الوجه ، يُحَيِّينِى بتحيته المعهودة ، قائلا :

ولد بليد فاسد !

ويستأنفُ خَطْوَه نائياً عنى بِجَنْبِه ، وقد أكسبَ قَسِماتِه أماراتِ التأفُّفِ والاستكبار . . .

ولم يكن أخى يزيدُ شيئاً على هذه الجملة التى أَلِفْتُها منه ، مختصراً فيها نصائحه وتوجيهاتِه وألوانَ رعايته .

ولقد كنتُ أَعْثُرُ على الرسائل المدرسيَّة الخاصةِ بى مغلقةً لم يُفَضَّ غِلافها ، مبعثرةً على المناضد أو فى إحْدَى زوايا الحُجَر .

ولاحظتُ أن أخى تستَبين فيه علائم الشيخوخة ، مع أنه لم يكن

وقتئذ قد جاوز الخامسةَ والأربعين ، فهو يبدو شاحبَ الوجه ، كثيرَ الغضون ، متقوِّس القامة ، لا تفارق الرَّعْشَةُ يدَه .

وكلما شَهِدْتُه على تلك الحال ، يغالب شيخوخته الباكرة ، يدركنى عليه بعضُ إشفاق ، على الرغم من إِزْرَائِه بى ، وتقطُّعِ الأسبابِ بينَه وبينى .

١١

وحَلَّ بنا « شهرُ رمضان » ذلك الشهر المبارك الذى يُضْفِى على البيتِ رَوْنَقاً وبهاء . فما إن يَميلُ ميزان النهار حتى تنبسطَ الموائد شَتَّى للرجال والنساء ، فإذا تجاوَبَتْ مآذنُ المساجد بأَذَانِ المغرِب ، استقبلتْ تلك الموائد ضِيفَانَها من خاصَّة الزوار ، أو من القُرَّاء والأتباع ، وقُدِّمَتْ قِصَاعِ الثَّرِيد مُكَلَّلَةً بقطع اللحم لمن يحتشِدُ بالبابِ من العُفَاةِ عابِرِى السبيل .

وفى طوايا الليل تتلألأُ الأنوارُ فى جَنَبَاتِ الدار طَوَالَ الشهر ، كأنما هى ليالى عُرْسٍ موصول . ولا تزال الدار فى حركة دائبة حتى

ساعةِ السَّحور ، والقُرَّاء يتبارَوْنَ فى تلاوة القرآن ، على اختلاف الألحان ، و ينشدون المُوَشَّحَاتِ النبوية رائقةَ الأنغام . كما كانت صلاةُ الجماعة تقام فى جلال وخشوع ، فتعمُرُ الدار بِرُوحٍ لطيف من التديُّن والإيمان لا تَزَمُّتَ فيه ولا استيحاش ، ولكنْ صفاء يتيح للنفوس التقلبَ فى أعطافِ المَرَحِ والإيناس .

وكان بَطَلُ المَوْسِمِ فى ليالى « شهر رمضان » هو « بابا درو يش » زَوْج « أمِّ خُضَيْر » . . . فلم يكن يبرحُ الدارَ خلالَ الشهرِ كلِّه ، يقطع أغلبَ نهاره نائماً فى حجرة القُرَّاء ، فإذا ما تأهبتْ الدار لتقديم موائد الإفطار تعالَى صوتُه مجلجلا ، وتراءى شخصه متنقِّلا ، فبينا هو بالباب يشاحِنُ العُفَاةَ من عابرى السبيل فى تطاول وتَأَمُّر ، إذا هو بين الخاصَّة من الضيوف يقبِّل يدَ هذا و يتملَّق ذاك ، و يحاول أن يُشْعِرَ مَن هنا ومَنْ هناك بما يؤدِّى لهم على الموائد من خَدَمات . . .

و بعد صلاة العشاء والتراويح ، يُقْحِمُ نفسَه حاكماً مهيمِناً يوهم الجمعَ أنه يَضَعُ نظام التلاوةِ بين القُرَّاء ، و يعيِّن مراتبَ الوافِدِين للسماع ، لا يَصُدُّه عن ذلك كله ما يلقاه من سُخْرِية واستهزاء .

وكان مِن تَلَطُّفِ زوج أخى أن استضافتْ السيدة « هاجر » و « فتحية » لتقضياَ عندنا هذا الشهرَ الكريم ، فاستجابتاَ للدعوة ،

وأمضيتُ مع « فتحية » فترةً من الزمن تمليتُ فيها أطيبَ ما في الحياة .

كنا نطعَم معاً في فَطُورٍ أو سَحُور ، ولا ألبثُ حين عَوْدَتِى من المدرسة أن أَعْجَلَ إليها وهى تنتظرنى بجوار النافورة فى الحديقة ، فنجلس معاً نُلْقِى إلى الإِوَزّ والبط مايتيسَّر من الطعام . وكان يطيب لنا المكوثُ جَنْباً إلى جنب ينعقِدُ بيننا صمت ، وفى الفينة بعد الفينة تتهادَى سوانحَ النظرات والبَسَمات . ومتى ارتفع صوتُ المؤذن بالتكبير ، داعياً إلى الإفطار ، صَحَوْنا من غفوة أحلامنا ، وكلٌّ منا يقرأُ فى عين صاحبه أَسَفاً على انقطاعِ غفوةٍ مُحَبَّبَةٍ تلوحُ فيها مباهجُ الأحلام .

وكنا نقضِى السَّهْرَة معاً فى البهو الكبير ، نستمع مع الوافدات على الدار من الضيوف إلى قارئةٍ رخيمةِ الصوت تتلو آىَ الذكر الحكيم ، ونخرج أحياناً إلى الفِناء الداخلىّ نتسلَّى بما تخوضُ فيه الخادماتُ من مُلاعَبَات ومفاكهات وأَسْمار .

وليلةً خلوتُ بنفسى فى حجرتى تؤنسنى لطائفُ أحلام ، فأنْبَهنى على حين فجأةٍ شخصُ « أمّ خُضَيْر » ماثلاً فى الحجرة ، ونالَنِى ذُعْر ، وسمعتها تقولُ فى صوتٍ عابث :

مَعْذِرةً . . . لقد أزعجتُكَ من أحلامك !

فأجبتُها ، وأنا أحاول ضَبْطَ النفس : أَيَّةَ أحلام تَعْنِينَ ؟

فتدانَتْ منى ، وابتسامتُها تتلعّب على شفتيها ، وقالت كأنها تَهْمِس :

قَسَماً إنى لأعلم ماذا يَشْغَلُ بالَك !

وازدادتْ من دُنُوِّها ، وهى تُواصِلُ حديثَها :

كلُّ الشبّان فى مثل سِنّك يَعْشَقُونَ !

فصرفتُ عنها بصرى ، وأنا مضطربٌ ، فتابعتْ قولَها :

ولكنى لم أرَ شابًّا أجهلَ منك بشئون الغرام والهُيام !

وجعلتْ المرأة تتلفّتُ حوالَيْها ، ثم تَهْوِى على أذنى بفمِها قائلةً فى خفوت : إذا جاءتْك فأَغْلِقِ البابَ عليكما دون أن تُشْعِرَها بأنك تفعل . . . لا تُضِعِ الفرصةَ يا أَبْلَه !

وأحسستُ بأن « أم خضير » تكاد تلامِسُ بخدّها صفحةَ وجهى ، وَهَبَّتْ علىَّ أنفاسُها الثِّقال ، فتناءيْتُ عنها ، وأنا أشْعُر بخشية وتقزز . أما هى فاستمرتْ تقول : البنتُ مثلُك بلهاء ، لا تحسِنُ الملاعبةَ !

ثم وقفتْ متأوِّدَةَ الخصْر ، غَمّازَةً بالحاجب ، تتلعّبُ أصابعُها تمثيلاً للموقِف ، وهى تقول : حينما كنتُ فى سِنِّها كان عِلْيَةُ الناس يتزاحَمُون علَىَّ ، ويتغزَّلُونَ فىَّ ، ويتنافسون فى استهداء قُبْلَةٍ منى !

ورأيتها تُوليني ظَهْرَها ، ماضيةً تتخطّر . ولما بلغتْ البابَ استدارتْ تواجهُني بقولها : لا تنسَ نصيحتي . . . كُنْ شجاعا !

واستَخْفَى شبحُها عن عيني ، فَهُرِعتُ إلى الباب أُغلِقُه عليّ بالمفتاح وقضيتُ ليلتي في بحر لُجّيّ من المشاعِرِ والتصورات . . .

١٢

وسمعتُ يوماً أن « إجلال هانم » و « تهانى » رَجَعَتا من « استانبول » وأنهما معتزمتان زيارتَنا في ضَحْوَةِ غد ، فكانتْ مباغتة دَهِشَ لها أهلُ الدار ، ولاحظتُ على « فتحية » وجوماً وهَيْجَةَ نفس ، وفاجأتُها وهي تنتحي بِجَدّتها ناحية ، وتحثّها على مغادرة الدار ، فاعتراني ضِيق ، ونظرتُ إلى « فتحية » في حيرة و إشفاق ، ولم أدّخِرْ وُسْعاً بعد ذلك في أن أُسَرِّيَ عنها ، وأن أتلطّفَ بها كل التلطّف .

وفي أصيلِ غدى ، حين عُدْتُ من المدرسة إلى المنزلِ ، ألفيتُ السيدة « هاجر » و « فتحية » جالستَيْن في ركنٍ من أركان البهو ، مع القارئة . وكانت « فتحيةُ » تَلزَمُ الصمت ، وفكرُها في شرود ،

ولما أحستْ بي مُقْبِلًا، على شَفَتَيَّ ابتسامُ ترحيب ، أَرْعَتْنِي نَظَرَها في شيء من التكلف ، فقصدتُ إليها ، واتخذتُ مجلسي بجانبها أنْقُضُ لها جَعْبَةَ الأخبار .

وبينما نحن على تلك الحال ، تناهَتْ إلينا جَلَبَةُ مركبة بالباب الكبير ، فَشَمِلَنَا إصغاء ، وتبادَلْنا نظرةً ذاتَ معنى ، ورأينا بعضَ الخادمات يهرولنَ إلى حجرة زوجِ أخي . . .

وبعدَ لحظات تتابعتْ الحركة ، وسمعتُ أصواتاً تبينْتُ لمن هي على الفور ، ثم رَنَّتْ ضحكة مديدة فيها نعومة وطراوة ، فالتفتُّ إلى « فتحية » فإذا وجهها مُمْتَقَع ، وما هي إلا أن شهِدنا « إجلال هانم » تعتمد على ساعد « بشير أغا » وتسير سيرَها الواهن الوئيد ، وعن يسارها « تهاني » تخطو خطوات الظبي المَرِح ، وتنثر حولها البسمات خَلَّابةً ساحرة ، وخلفهم جمع من الحاشية والأتباع .

وأسرعتْ زوج أخي تستقبل الضيفين في وسط البهو ، وتشتبك معهما في مُلاثمة وعناق . ووجدتني أتقدَّم نحوهما ، وانثنيتُ على يد « إجلال هانم » أُقَبِّلها ، فحَيَّتْنِي ولاطفتْ رأسي ، وكانت يدُها كما عهدتُها تلك اليد النَّقِيَّة الأَدِيم ، الرقيقة البَشَرة ، التي ينفَح منها عطرها المألوف . ولما رفعتُ رأسي أمام « إجلال هانم » استبان لي على الفور

ما صنعت الشيخوخة بذلك الوجه الوديع ، ولم أكن أحسَب أن أربعةَ أعوام تستطيع أن يكون لها ذلك الأثر الوخيم . ورأيتُ شفتيها ترتعشان ، وهى تبتسم لى ، فى ملاطفة وتحَنّن . فنالنى عليها تحسّر ، ووَدِدْتُ أن تتاحَ لى فرصةٌ أعاود فيها تقبيل تلك اليد الكريمة.

ثم عدلتُ ببصرى إلى « تهانى » ، فَخُيِّلَ إلىّ أن جَسَدَها كله يبتسم فى تألق ، وراعنى أنها أصبحت فارعة القامة ، يانعة الأوصال. فصافحتُها صامتاً ، خافضَ البصر .

ومضينا جميعاً إلى حجرة الزُّوّار ، وحانتْ منى التفاتة ، فلمحتُ « فتحيةَ » ماثلةً حيث تركتُها بجانب جدّتها ، لا يعبأُ بها أحد ، فهممتُ أن أرجع إليها ، ولكنى ألفيتُنى فى الركب منقاداً لا قِبَلَ لى بالنُّكُوص .

وكانت « تهانى » آخذةً بيدى ، وهى تنظر ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمال ، وتتحدّث إلىّ فى شأن الدار ، تعْجَب لها كيف هى على حالها لم يتبدّلْ من أمرها شىء ، كأنّ آخرَ عهدِها بها أمسِ .

واحتوَتْنا حجرة الزُّوّار ، وتناقل الجمعُ أحاديثَ متعانقة متلاحقة ، كانت « تهانى » ضَجِرَةً بها ، تُبدى فى جلستها علائم التململ والقلق .

وبعـد قليل رأيتُها تُمْسِكُ يدى ، وهى تقول :

بنا إلى حديقة الدّار .

ورجعنا نجتاز البهو ، فمررنا بالقارئة فى مجلسها صامتـةً ترتقب أَذَان المغرب ، فأما « فتحية » وجدتُّها السيدة « هاجر » فلم أجد لهما من أثر .

ونزلنا إلى الحـديقة نجوس خِلَالَهَا ، وكانت « تهانى » تتباطأُ فى مشيتها ، يتموّج على جسدها ثوبها الحريرىّ الهفهاف ، ذو اللون الوردىّ . ووجدتُنى أُخَالِسُها النظرَ متمليًّاً وجهها الوَضِىء ، تَرُوعُنِى فيه عينان مكحولتان ، ينحسر دونَهما البصر .

وأخذنا بأطراف الأحاديث ، وراحتْ « تهانى » تقصّ علىّ من أنبـاء حياتها فى « استانبول »، وتتقصّى أنباء حياتى الخاصّة فى المنزل والمدرسة .

وبغتةً ألقتْ علىّ نظرةً فاحصة ، وقد ارتسمتْ على فمها ابتسامة واضحة ، وقالت لى : لقـد أصبحتَ رجلاً يا « سامى » . . . لقد نَبَتَ شاربُك !

فابتسمتُ لها وأنا أقول : لم يَعُدْ لائقاً بنـا الآن يا « تهانى » أن نلعبَ لُعْبَةَالِاستخفاء ، أو نتسلّقَ عرائشَ العنب !

وتضاحكْنا طويلا ، ونحن نتذاكَرُ تلكَ العهود الخالية . وما زلنا فى سيرنا ، حتى بلَغْنَا الظُّلَّة القائمة بجوار النافورة ، فتبينتُ من « تهانى » رغبةً فى الجلوس ، فاستجبتُ لرغبتها ، وأسرعتُ أُخْرِج منديلى فَأَبْسُطُهُ لها على المَقْعَد الخشبىّ ، فأشرق وجهُها ارتياحاً ، وجلستْ فى رشاقة وهى تقول : شكراً لك يا « سامى » .

واستأنفتْ تتحدَّث فى شئون حياتها أثناء غيبتها فى « استانبول »

وكانت تُفْعِمُ أحاديثَها بوصف ما لقيتْ فى تلك المدينة العظيمة من حفاوة وتكريم . فقد أغدقَ عليها سَرَاةُ المدينة وعِلْيَتُهَا ألواناً من الهدايا والتُّحَف . ولقد تنافسوا فى التودُّد إليها ، والتعلُّق بها بكل سبيل، ولقد ضاقَتْ ذَرْعاً بما كان ينتهى إليها من رسائل المُعْجَبين .

وتسامَتْ برأسها فى خُيَلاء ، وهى تقول : حينما تزورنا فى منزلنا سأريك هذه التَّذكارات من الهدايا والرسائل .

وجذبتْ ثوبها لتسوِّىَ جَوْرَبَها ، فبدتْ ساقُها بديعةَ التكوين ، ولمحَتْنِى أُسارِقُها النظر ، فأسبلتْ ثوبَها متعجِّلَة ، وجابهتْنِى بنظرةٍ زاجرة ، وهى تبتسمُ لى قائلة : خَبيث !

لم تستغرقْ هذه الحادثةُ إلا لَحَظات ، ولكنّ أثرَها تعمَّق فى

نفسى ، فلم يَبْرَح . وشعرتُ بيقظةٍ تسرى فى أوصالى ، يُذْكِى لهيبَها مجاورةُ الفتاةِ لى ، والتصاقُ جَسَدِها بى .

واقترب موعدُ الإفطار ، فنهضْنا نعودُ إلى داخل الدار ، ورغبتْ « تهانى » فى أن تغسلَ يديها ، وكانت الطسوت والأباريقُ مُعَدَّة ، فطاب لى أن أحملَ لهــا الإبريق ، وأن أصبَّ منه على يديهــا ، وأنا أتوسَّم هاتين اليدين البَضّتين ، تنساب عليهما رَغَوَات الصابون ، وهما تتلوَّيان فى نعومة ولَيان . على حين كانت « تهــانى » تعابثُنى فى الفَينة بعد الفينة بما ترُشّنِى به من رَذَاذ ، ثم أراها تتدانَى منى بوجهها ، ولا تلبث أن تتراجعَ فى تضاحك ومِرَاح . وفيما نحن كذلك كاد وجهُها يلامس وجهى ، فإذا شَبَح « فتحية » يطالعنى ، وعينُها تنظر إلىّ ، فلاحقنى ارتباكٌ ، وسقطَ الإبريق من يدى ، فاندلق ماؤه على الأرض ، وكاد يصيبُ ثوبَ « تهانى » لولا أنها قفَزَتْ مرتدَّة ، فوقعتْ عينُها على « فتحية » منصرفةً تحثُّ خُطَاها ، فلوتْ « تهانى » رأسَها إلىّ ، وحَدَجَتْنِى بنظرة حامية ، وهى تقول : يالك من غَرِير !

ثم جذبتْ المِنْشَفَة منى ، ومسحتْ يَدَها على عَجَل ، وصَحِبَتْنى ونحنُ فى صمت إلى حجرة الطعام ، وأَذَانُ المغرب تتجاوَبُ به أرجاء الدار .

وشَعَرتُ بأن « تهانى » تقرُص يدى ، وهى تقول :

ما ذا تستحقّ من عقوبة لِقَاءَ فعلتِك التى فَعلتَ ؟

وأَلْفَيْنَا أهلَ الدار وضِيفانَهـا متحلِّقينَ حولَ المـائدة ، ما خلا « فتحيةَ » وجدَّتَها السيدةَ « هاجر » .

وأخـذتْ « تهانى » مجلسَها بجانبى ، وشرعنا نَطْعَم ، وكانت لا تنفكُّ فى أثناء الأكل تتابع سِرَارَها لى ، تتناول الطاعِمِينَ بألوانٍ من النقد والملاحظة فى سخرية واستهزاء ، لا ترحَم من لسانِها أحداً ، حتى جَدَّتَها العجوز . ولم يكن يُغْنيها أن تتحدَّث ، وأن أُولِيَهَا سَمْعا ، وإنمـا كانت تقتضينى أن أُعْلِنَ موافقتى على ملاحظاتها ، ومجاراتى لما تبديه من ألوان الِاستهزاء ، فإذا توانيتُ أو بدا علىَّ فتور ، طَفِقَتْ تَغمِزُنى تارةً وتَقْرُصُنى تارة أخرى ، فَأَعْجَلُ بالإيماء إليها ، أو أبتسم لها ، علامةَ الرضا والإقرار !

على أننى كنتْ فى سريرة نفسى أحسّ بأنى ضائق بهـذا كله ، وأنى لا أستطيع استساغةَ هذا العبث الجرىء ، والتطاول البغيض .

وكثيراً ما خطرتْ « فتحية » ببالى ، فشغلتْنى حيناً عما أنا فيه ، وأشعرتْنى بأن من حقِّها علىَّ أن أسأل عنها ، وأن أتلطفَ بها . بَيْدَ أنى لم أملك القيام بشىء .

وفرغنا من الطعام ، فانصرفْنا إلى البهو ، ننتظر شروع القارئة فى إنشاد بعض الموشَّحات فى التمدُّح بالنبى ، وكانت القارئة متربِّعة على حَشِيَّتِها تحتسى القهوة وتجتذب أنفاس الدُّخان فى غير هوادة ولا رِفق .

واستقبل البهوُ جديداً من وفود الزوّار ، رغبةً فى تشنيف الأسماع بالإنشاد ، ولكن القارئة ظلت مُكِبَّةً على قهوتها ، تتناول منها قدحاً بعد قدح ، مسحورةً بدُخانها ، تُشْعِل منه لِفافَةً بعد لفافة ، و بينها و بين جارتها حديث جَيَّاش موصول .

وطال بنا الِانتظار ، و بدت « تهانى » متململة ضَجِرة ، وهمستْ لى برغبتها فى أن نغادرَ البهوَ معاً ، فاستمهلتُها بعضَ الوقت ، ترصُّداً لفرصة مواتية .

ولاحت الفرصة المنتظَرة ، فانتهزتُها لى وحدى ، إذ نادتْنى من أقصى البهو إحدى الزائرات ممن أعرِف ، فهُرِعْتُ إليها أستقبل تحيتَها لى ، وتلطُّفَها بى ، وما لبثتُ أن تسللتُ أُسارق الخطا إلى الدِّهليز ، فصادفتُ هنالك « أمّ خُضَير » ، فأقبلتُ عليها مشبوبَ النفس أسألها :

أين « فتحية » ؟

— لست أدرى أين هى ؟ ربمـا وجدتَها فى حجرة الحاضنة « مَسَرّات » .

ويَمّمْتُ الحجرةَ أعدو إلى مكانها المنعزل ، و بلغتها مبهورَ الأنفاس فألفيتُ الحاضنة « مسرات » على سَجّادتها مسترخيةً وسْنَى تفسَحُ المجال لِمعدتها ، كى تؤدّىَ مهمتَها فى هَضْم الطعام ، فهززتُها بقوة وأنا أقول : أين « فتحية » ؟ أين « فتحية » ؟

فانتبهتْ الحاضنةُ مُزْعَجةً غَضْبىٰ ، تقول :

ألهذا جئتَ تُقلق راحتى ؟

— أرجو منكِ أن تخبرينى أين « فتحية » ؟

فتثاءبتْ طويلا ، ثم قالتْ فى صوت متقطّع :

كانت هنا ، وخرجتْ ، لا أدرى إلى أين ؟

فتركتُ حجرةَ الحاضنة أُهرول ، وهى تشيّعنى بقولها :

حَسْبِيَ الله ونعمَ الوكيل !

ضاع جهـدى فى البحث عن « فتحية » أين تكون ، وكنتُ كلما أخفقتُ فى العثور عليها فى مكان ، توقدتْ رغبتى فى مواصلة البحث وَالِاستقصاء ، وأنا معتزم أَصْدَقَ الِاعتزام أنى لا أكاد أراها حتى أَهْوِىَ على يدِها أستغفرُها مما كان ، وأَفْزَعُ بها إلى مَلاذٍ أمين يحمينى مما أعانيه من ألم وضيق .

واحتوانى الدِّهليزُ مرةً ثانية ، ففاجأتنى « تهانى » ثائرةً متنمِّرة ،

وجابهتْنى تقول :

أَمِنَ الذوق أن تترك ضيفتَك وحدَها ؟ أين كنتَ ؟

فَأَغَصَّتْنِي كلماتُهـا ، ووجدتُنى أنفجر قائلا :

كنتُ أبحث عن « فتحية » .

فرَنَّتْ ضحكتها عابثةً هَوْجَاء ، فتابعتُ قولى :

أليستْ هى ضيفتى أيضاً ؟

فلبثتْ تُصَوِّبُ فِيَّ نظرَها وتُصَعِّدُه ، وهى فى وقفتها تتلوَّى على نحوٍ أثار بين جوانحى غرائبَ إحساس ، ثم قالتْ فى تُؤَدَةِ المترفِّع :

من هى « فتحية » ؟

— إنكِ تعرفينها . . . « فتحية » بنت « محيي الدين افندى » ..

— أوه . . . تلك الفتاة السُّوقية التى تَلْبَسُ الجوربَ مقلوباً ؟

واسترسلتْ فى ضحكاتها العابثة الهوجاء ، فوجدتُنى أقول صارماً عنيفَ اللهجة : كَفَى يا « تهانى » !

ولـكنها لم تكْتَفِ ولم تزدجر ، فمضتْ تصبُّ على رأس « فتحية » أوضارَ النعوت والأوصاف .

وكنتُ واقفاً أحدِّق فيها ، وخلفَ ضلوعى عاصفةٌ تزلزل كِيانى .

وتركزتْ نَظْرَتى فى فمها ، فلم أَعُدْ أرى مِنْ ذلك الجسد الثعبانىّ إلا هاتين الشفتين العظيمتين تتلعَّبان فى عُنْفٍ وجبروت .

ودار رأسى ، فلم أَعُدْ أعى ما أفعل ، ولكنى تبينتُ أنى رفعتُ يدى ، كأنى أريد أن أَهْوِىَ بهـا على غريمتى التى تمادَتْ فى جرأة وتطاول ، فإذا أنا أهجُم عليها ، فأحتويهـا بين ذراعىّ ، وأندفع فى تقبيل فمها ، كأنى أمزِّقه تمزيقاً .

وأحسستُ بحركةٍ مفاجئة ، فالتفتُّ أستوضح ما جرى ، فألفيتُ «فتحيةَ» واقفةً مع « أم خضير » ، ولم يَعْزُبْ عن عينى أن أرى وجهَ « فتحية » بادىَ الِامتقاع ، مصعوقَ النظرات .

وتقدمتْ منا « أم خضير » فى خطوات عابثة ، وكأنها لم تلحَظ شيئاً مما كان ، وهى تجرُّ يدَ « فتحية » جرّا ، وتقول فى غير مبالاة :

كنتَ تبحثُ عن «فتحية » ، فجئتُكَ بها .

وسَرعانَ ما رأيتُ « فتحية » تدور بوجهها عنى ، وتنفلتُ عَجْلَى ، تخْفيها معَاطِفُ الدِّهْليز .

ومكثتُ لحظاتٍ فى ذَهْلَةٍ أَعْيا بإدراك ما يجرى حولى ، فلما ذهب الرَّوْعُ عنى ، طَوَّفْتُ ببصرى ، فلم أجدْ من أحد ، فانطلقتُ فى الدِّهليز

أَنْشُدُ « فتحية » ، ورأيتُ « أم خضير » مقبلةً عليّ ، فسألتُها ملهوفَ النفس : أين « فتحية » ؟

فابتسمتْ ابتسامةً عريضة ، ودَنَتْ منى تقول :

هدِّئ من ثائرتك . . . لا تُلْقِ بالاً لشيء . . . سأصلح لك الأمر . . . عَوِّلْ عَلَيَّ !

فسدَّدْتُ إليها نظراتى ، أستجلِى منها ما تَعْنيه ، فأردفَتْ تقول :

اذهبْ إلى حجرتك ، وانتظرْنى هناك !

ووجدتُنى أُذْعِنُ لها ، فأَقْصِدُ إلى حجرتى على الفور .

وضِقْتُ بالِانتظار ذرعاً ، وأنا أشعُر بأنى حَبِيس لا أستطيع الفَكَاكَ .

وهَزَّتْ مسامعى خَفَقَاتُ أقدام ، وأخذتْ عينى « أمَّ خضير » ، وقد أحاطَتْ يدُها بكَتِفِ « فتحية » ، وما لبثتْ أن واجهَتْنِي بقولها فى لهجة مَسكِينة : « فتحية » لها عندنا مقام كريم . إنها صاحبةُ البيت ، ورضاها أمرٌ لا بدَّ منه . ما لنا وللضيف الدَّخِيل الذى ليس منا ، وليس له فى قلبنا مكان ؟ !

وسكَنَتْ قليلا ، ثم دفعتْ « فتحيةَ » نحوى فى لطف ، وهى تقول لى : تقدَّمْ لتصالحها . . .

فما أسرع أن هُرِعْتُ إلى « فتحية » أُمسك بيديها أضغطُهما فى اهتياج ، فأحسستُ بها تَدُسُّ وجهها فى صدرى وهى تَنْشِج ، فطوَّقْتُها بذراعىَّ ألاطفها ، فما إن رأتْنا « أمُّ خضير » على هـذه الحال ، حتى خرجت خفيفةَ الخطو ، وأقفلتْ وراءها الباب .

وظَلِلْنا كذلك حيناً حتى أمسكتْ « فتحيةُ » عن النشيج ، وشرعتْ تتطلَّع إلىّ ، فتواصلتْ نظراتُنا ، ولمحتُ شفتيها تختلجان ، فما هى إلا أن أَهْوَيتُ على فمها أُوسِعُه من تقبيل !

وكان عناقٌ طويل . . .

١٣

وفى الغَدَاةِ تركتُ فراشى ولَمَّا تَبْلُغِ الساعةُ السادسةَ ، على غيرِ ما تعوَّدْتُ .

وتسلَّلْتُ من البيت أتَّقى أن تقعَ عينُ « فتحيةَ » علىّ .

وأمضيتُ يومى فى المدرسة ، كأنِّى نائم أحلُم . . .

وملك نفسى شعورٌ بأنى قد انفسحتْ لى دنيا جديدة بهيجة لم يكن لى بها سالفُ عهد .

ولاحظ عليَّ قريني « خيرى » أنى فى حالةٍ تبعَثُ على التساؤل والاِستخبار ، فقال لى : مالكَ اليومَ يا « سامى » طَلْقاً بسّاماً لا تنتهِى عن مَرَح ؟ هل كَسَبْتَ الورقةَ الأولى من وَرَقِ النصيب ؟

فأجبته فى نَشْوة : رَبِحْتُ الدنيا كلَّها يا « خيرى » !

فهزَّ كتفيه لى ، ولَوَى رأسَه عنى .

وترامَى إلى سمع رفيقِنا « الزغبى » هـذا الحِوار ، فدنا منِّى وهو يتفحَّصنى بنظر ثاقب ، وربَّت كتفى مبتسمَ الثغر ، وقال :

إنى أعرفُ السرَّ فى هذا الاِنقلاب !

فتلألأتْ على وجهى غبطة ، وجعلتُ أقهقه ، ثم أخذتُ بيده ، وملتُ على أذنه هامساً أقول : أَمَا أحببتَ فى حياتك ؟

فسمعتُه يقول : أوه . لى فى هذا الميدان جولات وجولات !

ومضينا معا يصارحُ كلانا صاحبَه بأقاصيصِ قلبه ، على حينٍ وقف « خيرى » بجوار الحائط ينظرُ إلينا فى تطلُّع واستغراب ، وهو يَقْرِض أظفار يدِه !

وكان شوقى إلى « فتحيةَ » ينمو فى هذا النهارِ ساعةً بعد ساعة ، فلما قَفَلْتُ أصيلا إلى المنزل ، لم يكن لى من همٍّ باديَ بَدْءٍ إلا أن أُسارِعَ إلى السؤال عنها ، فأعلمونى بأنها بارحتْ الدارَ فى الضَّحْوَةِ

الباكرة ، فسُرعان ماغاضَتْ بشاشتى ، واغتمَّتْ نفسى ، ومَضَّنِى أسف ، فيَمَّمْتُ حجرتى ، تذهبُ بى الهواجسُ كلَّ مذهب .

وبعدَ قليل لزمتُ النافذةَ أُرَوِّحُ عن نفسى ، وأَشْغَل ناظرى بالتطلع إلى حديقة الدار . وبينما أنا منسرحُ الفكر فى آفاقٍ شتى لمحتُ طيفين يجوسان خلال الشجر ، فمددتُ عيني أتبيَّنُ : لِمَنِ الطيفانِ ؟ فوضح لى أنهما أخى و « تهانى » يسيرانِ جنباً إلى جنب ، فوجدتُنى مهتمًّا أرقبهما وأتقصَّى حركاتِهما فى دِقَّة ، ثم تركتُ النافذة ، وقصدتُ إلى الحديقةِ أنتبِذُ منها مكاناً مستوراً أَرَى منه دون أن تنالَنى العيون .

وكان جليًّا أن أخى بالغُ التلطفِ « بتهانى » يُرَبِّتُ يدها ، ويداعب خدَّها ، ويُسِرُّ إليها بعضَ كلمات تتلقَّاها مَرِحَةً طروبا تُرسل ناعمَ الضحكات .

وألفيتُهما يتجهان إلى الباب ، والمركبةُ هنالك فى انتظارهما ، وماهى إلا أن رأيتُ « إجلال هانم » هابطة على السلَّم تَلْحَق بهما ، فركبوا جميعاً . واعتلى « مدبولى » كُرْسِيَّ السِّياقة يفرقع بسوطه ، فما لبثتْ المركبةُ أن دارتْ عجلاتُها تَطْوِى الطريق .

ورجعتُ أدراجى أستشعرُ انقباضاً ووحشة ، وأسائلُ نفسى :

كيف ساغ « لتهانى » أن ترتحلَ عن الدار ، دون أن تُحَيِّيَنِى تحية التوديع ؟

وعجبتُ لأخى ، كيف جَدَّ من أمرِه هذا الإقبالُ على « تهانى » وذلك التلطف بها ، وهو الذى كان لا يَبَشُّ لها ولا لجدَّتِهــا ، بل لقد كان ينظر إلى « تهانى » نظرةَ إصْغار ، ولا يُعيرُها أدنَى التفات ؟

وفى صُبْحِ غدى ، لم أَكَدْ آخُذُ مكانى من المركَبة قاصداً إلى المدرسة ، حتى مِلْتُ على « مدبولى » أسألُه مداعبا :

إلى أين ذهبتَ بالرَّكْبِ أمسِ ؟

فتضاحك الرجلُ قائلا :

كانت نزهة طيبة ، طُفْنا فيها بالشوارع، وقَصَدْنا بعضَ المتاجر ...

فقلتُ له : هل اشتريتم شيئاً ؟

— ملأنا المركبةَ بشتى الأشياء .

وخلوتُ بنفسى فى المركبة يستغرقُنى التفــكيرُ فى حديثِ السائق ، وفيما كان بين أخى و « تهانى » أثناءَ طوافهما فى الحديقةِ أمسِ .

١٤

انصرمَ أسبوعان عانيتُ فيهما أشدَّ القَلَق والِاضطراب ، وعلى الرغم من شوقى المشبوبِ للقاء « فتحية » لم تطوِّعْ لى نفسى أن أزورَها فى دارها . . .

ويا طالما تَمثَّلَ لى أن ما كان بيننا فى اليوم المعهودِ قد أساءَ إليها ، وأنها واجدةٌ علىّ ، مستريبةٌ بى ، نافرةٌ منى .

وكنتُ عصرَ يوم فى طريقى إلى البهو ، عائداً من المدرسة ، فصادفَتْنِى « فتحيةُ » بالباب ، فسَرَتْ فى كِيَانِى رَجْفَة ، ولكنى تمالكتُ ، وتدانيتُ منها أحيِّيها وأنا صامت ، وسرتُ معها خطوات ، ثم قلت : كِدْتُ أيأس من عودتِك يا « فتحية » . . .

فأجابَتْنِى فى لهجة مألوفة : كانت عندنا شواغل .

ومضيتُ بها إلى حجرتى ، وبين جَنْبَىَّ يَشُبُّ ضِرام الشَّغَف والحنين ، والدنيا من حولى تتألَّق وتزدهر ، وتَشِيعُ فيها نَشْطَةُ الحياة .

وما إن احتوتْنا الحجرة ، حتى التفتُّ إليها متودِّداً عَطُوفَ اللهجة ، أقول : أكنتِ ببابِ البهوِ تنتظرينَ مَقْدَمى ؟

فَسَمَتْ إلىّ بعينين طَلَّاعتين قرأتُ فى نظراتهما أوضَحَ جواب .

وما أسرع أن ملكتُها بين ذراعىَّ ، وكأنى قد ملكتُ الدنيا جمعاء .

وامتدتْ إقامةُ « فتحية » فى البيتِ أسابيع ، وطاب لى مُقامُها . وتوشجتْ بينى و بينها أواصرُ حبٍّ مكين ، ووجدتُنى عظيمَ الثقةِ بنفسى ، قادراً على أمرى ، ناشطاً للعمل ، أستذكر درسى غيرَ وانٍ ولا مَلول ، وهى عَنْ كَثَبٍ منى تواصل التطريز . وشعرتُ بأنى مَعْنِىٌّ بملبَسى وزينتى ، حريصٌ على تنظيمِ حُجْرتى ، أستعينُ « فتحيةَ » فى تحقيقِ ما أصبو إليه من أناقة ونظافة وتنسيق .

وقضيتُ فى صحبتها هذه الفترةَ من أيامى هانئَ النفس ، بارئَ البال من شوائبِ الحياة ، يتطلّع كلانا إلى الغدِ المرجوِّ بعين الثقة وَالِاطمئنان ، ويُحِسُّ كلانا أن عيشَه قدأصبح موصولًا بعيش صاحبه، بيننا تلاؤم واندماج ، لا فراقَ بعدَه ولا انفصام .

وتكررتْ هذه الفتراتُ الممدودة التى تَقْضيها « فتحيةُ » معنا فى الدار ، ونحن نستمرئُ نَشْوَةَ الصحبة ، ومُتْعَةَ اللقاء ، لا حسابَ ولا ارتيابَ .

وفى أثناءِ ذلك كله ، لم يَجْرِ لسانى باسمِ « تهانى » ، وكذلك

« فتحية » لم تتحدَّثْ إلىّ فى شأنِها أىّ حديث .

ومما ساعدَ على ذلك أن « تهـانى » لم تطأ قدمُها أرضَ البيت ، منذ ذلك اليومِ الذى خرجتْ فيه هى وجدَّتُها بالمركبة يصحبُهما أخى .

على أنى عجبتُ لهذا الانقطاع كيف يكون ، ولم أقفْ له على كُنْهٍ ، وإن كنتُ قد طِبْتُ به نفسا ، وَوَدِدْتُ أن تَظَلَّ « تهـانى » خلفَ ستائر النسيان .

ولـكن ما هى إلا أسابيع ، حتى جعل يَهُزُّ سمعى طنينُ التهامُس بين الخدم ، فـكنتُ أتبيَّنُ فى أحاديثهم الغامضةِ اسمَ أخى مقروناً باسم « تهانى » .

وكانت « أمُّ خُضَـير » حين تَقْدَم إلى حجرتى لتعالجَ تنظيفها وترتيبها ، لا تفتأ تدور حولى بأطرافٍ من الـكلام فى شأن « تهانى » وأخى ، تثير بها فضولى ، ولا تَشْفِى غليلى ، فأراها حينا تَغمِز وترْمِز ، وحينا تقتضب الأنباء والأقاصيص ، وتارةً تتساءل عابثة : لماذا انقطعتْ « تهانى » عن زيارة البيت كما كانتْ تفعل من قبل ؟

وذاتَ ليـلة ساقَتْنِى خُطَاى إلى حجرة الحاضنة « مَسَرَّات » فَلَقِيتُ معها زوجَ أخى مقبلةً عليها تتحدَّث فى حَمِيَّةٍ واهتمام ، فلمـا رأتْنى زوجُ أخى أمسكتْ عن الـكلام عامدة ، ولـكنّ الحاضنةَ لم

تمالك أن تسترسلَ فى زمجرة وحِدَّة ، وأن تستنزلَ لعنات السماء على نفوسٍ تملؤها الخيانةُ والغدر ، بها تتقوّضُ دعائمُ البيوت ، وعلى يدها يتمّ خرابُ الأسر .

ولم يَخْفَ على أن زوج أخى تكفكف أنداء من دموع ، وأن مُحيَّاها يرتسم عليه طابَعُ الأسَى الدفين ، فعزَّ على نفسى ما هى فيه ، ورأيتُنى أقتربُ من مكانها ، فآخذُ يدها وأرفعُها إلى فمى أطبَع عليها قبلة رفيقة ، وأنا أهمهم :

أنتِ أكرمُ من أن يعاملَكِ أخى هذه المعاملة !

فمسحتْ على رأسى ، وقبلتْ جبينى فى حنان .

ولُوحظ أن أخى يُكْثِرُ من التغيُّب عن الدار ، فإن اتفق لى أن أراه ، لمحتُ منه حالا غيرَ ما كنت أعهد ، إذ كان يحاول أن يبدوَ فى مظهر من الأناقة والرشاقة والمِراح ، وهو الذى كان مثلا واضحاً للتوقُّر والتزمُّت وَالِاحتشام .

إلا أن هذا المظهرَ الطارئَ لم يكن بقادرٍ على أن يستُر الشيخوخة فى موكبها الجارف ، فقد ارتسمتْ على وجه أخى غضون يَزْحَم بعضُها بعضا ، وكَسَتْه مَسْحَةٌ من الشحوب تنبىء عن اضمحلالِ قواه ، وإن كانت سنُّه لا تؤهِّله لتلك الشيخوخة العَجْلَى .

واعتكفتْ زوجُ أخى فى حجرتها ، وألزمتْ عينيها نظارةً زرقاء ، ولم تكن تَأْنَسُ إلا بلقاء السيدة « هاجر »، فهى تطيل الجلوسَ إليها، ويَطِيبُ لها أن تتحدثَ معها ، وأن تستمعَ لما تُفِيضُ فيه جليستُها من حديث هادئ وديع يبعَثُ الطمأنينة والرضا .

وفى الحين بعد الحينِ تخلو « أمُّ خُضَيْر » بزوج أخى ، تنفُض بين يديها جَعْبَةً من الأخبار فى هَمْسٍ وَسِرَار .

وتَلَبَّدَ فى جَوِّ الدار وجوم ، فكأننا كنا نَحْيَا فى مَأْتَمٍ صامتٍ لا تنقضِى أيامُه ولياليه .

وتواردتْ الأيام ، تكشِف الستارَ شيئاً فشيئاً عما تَمَّ بين أخى و « تهانى » من زواج ، ولكن هذا النبأَ على خَطَره لم يكن يجرؤ على أن يَجْهَرَ به لسان !

١٥

لبثتُ أربعةَ أشهر ، تتوثَّقُ فيها علاقتى « بفتحية » . وحان يوم تجلَّى لى فيــه أنها تغالِبُ طارئاً من الإعياء ، فأخذ وجهُها يبدو عليه الامتقاع ، وجعلت تجْنَحُ إلى الركود ، ويُسْرِعُ إليهــا الغَشَيان . . . وكثيراً ما رأيتها شاردةَ النظرات ، غافلةً عن مُنا قَلَتِى الحديثَ . وازداد على مَرِّ الأيام امتقاعُها وتثاقُلُها حتى انطلق لسانُها بالتأوُّه على كُرْه ، ولم تَعُدْ تطيق صبراً على ما بها من آلام .

وفى ظُهيرة يوم ، وأنا بالمدرسة مع « الزغبى » فى فترة الراحة ، وقفنا نتجاذَبُ أحاديثَ الشــباب . فانبرى « الزغبى » يتحدَّث عن الحبّ وأحداثه ومُعَقِّباته ، وجعلتُ أستزيدُه من الإفاضة فى هذه الشئون، وأستوضحُه ما غَمَضَ من الدقائق . و بغتةً لاح فى مخيِّلَتِى طَيْفُ «فتحية » فى مظهرِها الجديد ، فبدأتُ أَكْتَنِهُ ما بها من إعياء ، وما تعانيه من انقلاب . ودهانى قَلَق ، ثم عرانى سُهُوم ، ولــكنى وجــدتُنى قد استَخَفَّنِى فرح مفاجىء ، فأقبلتُ على « الزغبى » أُقَبِّــلُه طَرُوباً مهتاجَ النفس .

ولما كانتْ أَوْبَتِي إلى المنزل بعـدَ العصر ، ألفيتُ « فتحية » قابعةً فى حجرتى ترتقب مَقْدَمِى ، فوقفتُ حِيالَها أتأملها ، وقلبى يكاد يَطْفِرِ من بين الجوانح ، فَسَمَتْ إلىّ بعينها كأنها تَعْجَبُ مما ترى منى ، وتسأل عن سِرِّ وقفتى وتأملى ، فأمسكتُ بيدها ألاطفها ، وهمستُ فى أذنها قائلاً :

أَغَرِيبٌ عنكِ أنا يا « فتحية » حتى تُخْفِى عنِّى هذا الأمر ؟

فاعتمدتْ برأسها على كتفى ، وقد أسبلتْ جفنيها دون أن تُجيبَ .

واحتضنتُها مشغوفَ الفؤاد أقول :

ما أسعدَنِى بهذه البُشْرَى ياحبيبتى !

وسَرَتْ فى كيانى شجاعة واقتدار ، والتمعتْ عينى التماعَةَ التأهُّب والتدبير ، ولاحظتْ عَلَىَّ « فتحيةُ » ما أنا فيـه ، فنظرتْ إلىّ نظرةَ استخبار ، فقلتُ : ستعلمين كلَّ شىء !

واندفعتُ مُدبراً عن الحجرة ، قاصداً حجرةَ زوج أخى « مَوَدَّةَ هانم » فصادفتُها على المُتَّـكَإِ تجتذب أنفاسَ لِفافتها ، فارتميتُ على صدرها أُوسِعُها عناقاً وتقبيلاً ، فابتسمتْ لى وهى تقول :

جئتَ تطلبُ شيئاً لا محَالَةَ .

— شيئاً عظيماً فيه سعادتى جمعاء !

فرفعتْ نَظَّارتها الزرقاء عن عينيها شيئاً ، وحدَّقت فى وجهى متعجِّبة ، وقالت : أىّ شىء يا « سامى » ؟

وفى غيرِ تردُّدٍ ألقيتُ جوابى قائلاً :

إننى أحبّ « فتحية » وأريد أن أتزوّجها . . .

فَعَظُمَتْ دهشتُها ، وقرأتُ فى عينيها الحيرةَ البالغة ، وجعلتْ تبعث من بين شفتيها همهمةً لم أستَبِنْ منها كلاماً . ثم قالت لى :

نفكِّر فى هذا الأمر يا « سامى » .

فلم أبرحْ موقفى منها ، وتشبثتُ بها أقولُ مُلِحًّا :

فِيمَ التفكير ؟ ليتَكِ تعلمين مبلغَ حُبِّى إياها !

وطَفِقْتُ أُفْضِى إليها بما بينى و بين « فتحية » من هَوًى مشبوب، وأسردُ لها كيف نشأتْ هذه العلاقة ، وكيف تطورتْ ، وما زلتُ أُدِيرُ الحديث حتى أَمَطْتُ لها اللثامَ عن « الحادثِ السعيد » الذى تنطوى عليه الفتاة !

فما أسرع أن ألفيتُ زوجَ أخى مأخوذةً متجهِّمَةً تعالج أن تَنْبِس، فيَعْيَا لسانُها بالكلام . ولم تملِكْ إلا أن تُنَكِّسَ رأسَها وهى تقول :

لا بُدَّ أن أتحدثَ إلى أخيك فى هذا الأمر !

فرنوتُ إليها وقتاً ، ثم صحتُ بها محتدًّا :

فليتركْنا أخي وشأنَنا . . . إنه في شُغُلٍ عنا ، لا يَعْنيهِ شيء من أمرِنا !

وبعدَ أيامٍ رأيتُ أخي في المنزل ، فتوقعتُ أن يدورَ بينه وبين زوجـه حديثٌ في شأني مع « فتحية » ، واستشعرتُ قلقاً ورَهْبَة ، وجعلتُ أَجُولُ في الدار لا أجدُ لي من قرار ، وأنا أتنسَّمُ ما يجرى في حجرة أخي وزوجِه . وبينما أنا كذلك رَوَّعَنِي صوتُه صائحاً في البهو يقول : ما هـذه المَفاسِد التي تَقَعُ في بيتي ؟ أنا لا أَقْبَـلُ في البيت مُجَانَبَةَ الصون والعفاف ، فلترحل الفتاة وَجَدَّتُها على الفور !

فانبسطتْ على عيني غِشَاوَة ، وأدركني شِبْه إغماء ، فتهالـكتُ على مقعد كان منّي غيرَ بعيد ، وتناهَى إلى سمعي هَرْج ومَرْج : أخلاط من أصوات تعلو وتهبط ، وخَفَقَات أقدام تَغْدُو وتَرُوح .

وخُيِّلَ إليَّ أني أسمعُ صوتَ « فتحية » خلالَ هـذه الجَلَبَةِ ، فَشَبَّتْ النار في قلبي ، ونهضتُ متحفزاً مستوفزاً أعدو ، وواصلتُ عَدْوِى ، حتى قاربتُ البَهْوَ في غيرِ وَعْى ، فرأيتُ أخي ماثلا متنفّخا يَهْتَزُّ شارباه ، وقد التفتْ به لُمَّةٌ من الخـدم والأتباع ، وبين يديه خادِمُه الخـاصُّ « سعد الله » فارعَ القامة ، صُلْبَ العود ، عَريضَ الألواح . فلما لَمَحني أخي تَقَدَّم خطوات ، وهو يُلَوِّحُ بعصاه مُغْضَباً

مزمجراً يقول : أأنتَ فعلتَ هـذا ؟ أأنتَ يكون منك هـذا الإثم ؟ لَتَذُوقَنَّ وَبَالَ أمرِكَ !

فَدَلَفْتُ إليه ذليلَ الخطو ، مطأطئَ الرأس ، وانحنيتُ عن كَثَب من يده ، وأنا أقول ضارعَ اللهجة : « فتحية » لا ذنبَ لها ، أنا المسئولُ عما كان . . . اغْفِرْلي زَلَّتِي !

فاعتدل أخي في وقفته ، واتـكأ على عصاه ، وهو يقول لخادمه « سعد الله » : عليكَ به ، فأَدخلْه حجرته ، ولا تَدَعْه يفارقها ، حتى أُنْهِيَ إليك أمرى .

فما هى إلا أن وجدتُني قد أحدَقَتْ بى ذراعان عنيفتان تسوقانني ، فتعاصيتُ وتأبَّيْتُ ، أتصايحُ وأحاول التفلُّت ، ولـكنَّ الخادمَ لم يَدَعْ لى طاقةً بالخـلاص ، وإذا أنا قد خارَتْ قواى ، وأظلمتْ الدنيا أمام عينى ، ووجدتُنِي بعد حين فى حجرتى ، على وِسادى ، أَبْـكِي وأبكى . .

مَضَتْ أيام كنتُ فيها كالمحموم ، لا أَرِيمُ فراشى ، ومعى زوجُ أخى ، تتعهدُني وتتلطَّفُ بى ، ولا تقصِّرُ فى تهوين ما كان علىَّ . وكلما سألتُها عن « فتحية » :

أين ذهبتْ ؟ وإلى أى مصير سِيقَتْ ؟ ربَّتَتْ كَتِفِي وهى تقول :

لا تـكن مهموماً ، ليهدأْ بالك ، لـكلِّ شيء دواء !

وَأَبْلَلْتُ من وَعْكَتِي ، فتركتُ مضجعى ، وما زال شَبَحُ « فتحية » يُرَاوِدُنِي ، فَيُفْعِمُ بالقلق نفسى ، ولم يَشْفِ غليلى ما حدثتنى به زوجُ أخى فى هذا الشأن ، فجعلتُ أحاور « أُمَّ خُضَيْر » لأستخلصَ منها حقيقةَ ماجرى ، فصارَحَتْنِي بأن أخى عَمِلَ على إِرْحَالِ « فتحيةَ » وَجَدَّتِهَا إلى إحــدى الضِّيَاع ، وأن « فتحيةَ » باتتْ هنالك زوجاً لشيخ الخفَرَ !

فنزل علىّ هــذا النبأُ نزولَ الصاعقة ، ووجدتُنى ثائراً أتسخَّط ، حاقداً أَغْلِي ، و بنيتُ عزمى على أنى لا بدَّ ناقضٌ ما أبرمَ أخِى من عسف وعُدْوَان ، وأنه لا قوةَ تَحُولُ بينى و بين « فتحية » آخرَ الأبد .

على أنى كنتُ لا أكادُ أَهُمُّ بإنفاذ خُطة ، أو إعمالِ تدبير ، حتى تعتاقَنِي العَقَبات ، و يتعاظَمَنِي الأمر ، وأَجِدَنى فى شِبَاكٍ لا أعرف لى منها مَحِيصاً .

وتعاقَبَتِ الأيام علىّ ، فشاعتْ فى أوصالى بلادة واسترخاء ، وفقدتُ كل همــة ونشاط . أصبحتُ أَمَلُّ درسى ، ولم أَعُدْ أفتحُ من كتاب ، بل لقد ضِقْتُ ذَرعاً بنفسى و بمن حولى من الناس جميعاً .

وكان طيفُ « فتحيةَ » يُحَوِّمُ فى مخيِّلتى يسائلنى :

ماذا صنعتُ من أجلِها ؟

فتنطوى جوانحى على حَسْرَةٍ واغتمام ، وأستشعرُ احتقاراً لنفسى ، وإزراءً بما قارفْتُ من آثام . . .

وكنتُ فى غالبِ أمرى إذا أَوَيْتُ إلى حجرتى حاصرَتْنِى ذِكْرَيَات حُلْوَة تتراءى لى فيها « فتحية » جالسةً قُبَالَتِى تطرِّز ، فأتملَّى وجهَها الوسيم الوديع ، أو ذاهبةً آيبةً تتعهَّدُنى وتُعْنَى بخاصَّة شأنى ، أو متحدثةً إلىّ فى مستقبلنا المرجوِّ بصوتها الرفيق . فأسارعُ إلى نفسى أتساءل محزوناً محسوراً :

تُرَى كيف تعيشُ « فتحيةُ » الآنَ فى زوايا الريف ؟ وما موقفُها إزاء ما أُرْغِمَتْ عليه من زواجٍ بَغِيض ؟ لا مِرْيَةَ فى أنها تُعانِى ضروباً من المهانة والإذلال ، وتُكابد ألواناً من الشِّقْوة والبأساء .

وإذا أنا تضطرم نفسى هَمًّا وأسًى ، وَيَحْضُرُنِى شَبَحُ أخى فى وقفته الصُّلبة المُجَنَّحَة ، وفى يمينه عصاه يُلَوِّحُ بها فى وجهى ، فأَعْجَبُ كيف جَبُنْتُ حِيالَه حتى فَرَضَ عَلَيَّ ما فرض ، وأَنْفَذَ ما أنفذ ؟ أما كان حَرِيًّا بى أن أنتزعَ العصا من يدِه ، وأن أَهْوِيَ بها فأحطِّمَهَا على رأسِه ؟

وتعرونى نَوْبَةٌ أَفقِدُ فيها رشدى ، فيعلو صوتى بِشَتْمٍ وسِباب ، وأنهالُ على نفسى بِجُمْعِ يدى ضرباً ولكما ، وأظلُّ كذلك مهتاجاً

حتى أسقطَ على سريرى كالجدارِ يتهاوَى . فإذا نهضتُ عندَ الصباح أُزايلُ فراشى ، وجدتُ الوِسادَ مُخَضَّلاً بالدموع .

ولما عُدْتُ إلى المدرسة لم تَخْفَ حالتى على رفيقىَّ « الزغبى » و « خيرى » ، فأقبلا علىَّ يتعرفان خَبيئةَ أمرى ، ويستجليان مكنونَ سِرِّى، فأجبتهما : أريد أن أَخْلُصَ من هذه الدنيا ... أريد أن أنتحرَ .

فوجدتُ « خيرى » يَفْغَرُ فاه مرتاعاً ، ويرتدُّ خطوات ، ولكن « الزغبى » جعل يتلطَّفُ بى ، ويأخذُ بيدى ، وهو يقول : ماعليكَ من بأس ، هَدِّئْ من رَوْعِكَ ، ماذا فى الأمر ؟ اُصْدُقْنِى .

فَسِرْتُ معه خافضَ الرأس صامتاً ، أحاولُ أن أستبقىَ فى سَرِيرَتى ما يَشْغَلُنِى، ولكنى ما عَتَّمْتُ أن ألفيتُنى أنفجرُ نافضاً دَخِيلةَ نفسى، مُفْضِياً بكل ما أقاسيه من متاعبَ وهموم . وختمتُ حديثى بقولى :

أبعدَ هذا تحسَب أن خيراً لى أن أعيشَ ؟ أليس الانتحارُ أولىٰ بى؟

فتضاحك « الزغبىّ » وهو يَضَع يده على مَنْكِبى، وقال :

ما زلتَ طفلا يا « سامى » لا خِبْرَةَ لك بالحياة . إن ما جرَى لك أهونُ من أن يُحْسَبَ له حساب . سوف تنسى ما كان بينك وبين فتاتِك ، وسوف تَقَعُ فى شِباكِ حبّ جديد .

فصحتُ على الفور : معاذَ الله أن أخونَ لها عهداً !

١٦

ما شأنُ « تهانى » بى ؟

أَلَا بُعْدًا لتلك النزَعات التى تجعلُنى أُدْمِنُ التفكيرَ فى تلك الإنسانة العَتيَّةِ اللعوب !

ما لهذه القُبلةِ التى أذاقَتْنِى إياها منذُ أشهرٍ خَلَتْ تعاوِدُنِى ذكراها ، فتثيرُ بين جوانحى رغبةً عارمة جارمَة ؟

ما لهذهِ الإنسانة لا يتمثَّلُ لى طيفُها إلا جسداً غضّا بضّا ، تتموّج عليه شُفوف حريرية ناعمة زاهية ؟

أنا من هــذه الذكريات والأَخْيِلَةِ فى عذاب موصول ، فلا أجدُ أمامى إلا رأسَ أخى أصبُّ عليه سَوْطَ النقمة والسُّخْط .

وساعةً وأنا فى المدرسة يزدحمُ خاطرى بتلك المشاهِدِ والتصوُّرات ، أخذتُ بيد « الزغبى » أشــدُّ عليها قائلا :

كيف حالُكَ مع « الحاجَّةِ فاطمة » ؟

فَبُهِتَ « الزغبى » وحدَّق فىّ ، فقلتُ له :

لقد حدَّثْتَنِى عما تلقاه فى بيتها من مُتَع . ألم تعاودْ زيارةَ البيت ؟

فانبسطتْ أساريره ، وتبسَّم ضاحكاً يقول :

وهل أستطيع عنه سُلُوّا ؟

ومال على أذنى هامساً يقول : إذا شئتَ ذهبنا العَشِيّةَ معا .

فضغطتُ يدَه ، وقلتُ : موافِق .

وأقبلَ « خيرى » فى هذه اللحظة ، فقال له « الزغبى » :

ستكونُ معنا . . . استَعِدَّ لقضاء سهرة ممتعة .

فسأله « خيرى » : أينَ ؟

فأجاب « الزغبى » : عندَ « الحاجة فاطمة » . . .

فأجفلَ « خيرى » وهو يَقرِضُ أظفارَه ، ويقول :

أبِى . . . أبِى ، لو عَلِمَ لكانت الطامَّةُ الكبرى .

فقلتُ « للزغبى » : لِنَتْرُكْ « خيرى » حرّا فى تصرفه . . .

فقال « الزغبى » : أفنترُكُه طفلًا حتى يَشيبَ ؟

ثم التفتَ إلى « خيرى » وصاح به : قَوْلٌ فَصْلٌ ، ستكونُ معنا . . . لا تخشَ شيئاً من أبيك ، لن تجدَه هناك !

ولما جَنَّ الليل ، احتوَتْنَا حانَة وَضِيعة فى حىٍّ « باب الشعرية » فطلب لنا « الزغبى » شراباً أسودَ لاذعاً كريهَ المَذَاق ، ما كدتُ أُصِيبُ منه جُرْعة ، حتى اندلعتْ النار فى أحشائى ، فأدرك « الزغبى »

ما بى ، فلكزنى وهو يقول :

تشجّعْ ، وكن بطلا ، وافعلْ مثلَ ما أفعل .

وتناول كأسَه ، فصبَّ منها فى فمه جُرْعة وافية ، ثم انطلق ضاحكاً يَزْهُو ، فتناولتُ كأسى ، وصنعتُ كما صنع ، وكنتُ أحسُّ بادىءَ بدء شيئاً من التهيُّب والتردُّد ، فأنا حِيالَ مغامرة مجهولة لا أدرِى لها عُقْبىٰ ، ولكنى ما لبثتُ أن تطاير عنى شعورُ الخوف والإحجام ، وجعلتْ تسرى فى أوصالى سارية من الجرأة والطلاقة وَالِاندفاع .

أما « خيرى » فقد أمسك عن الشراب ، وَحَرُنَ لا تَلِينُ له قَنَاة ، وكان وجهُه كاسفاً ، وجبينُه يتفصَّدُ عرقا ، فَهَزِئْنا به ، وتركناه يَقْرِضُ أظفاره ، وهو فى حالة زَرِيَّةٍ من التخاذُل وَالِارتباك .

وفَصَلْنَا عن الحانة ، فقادَنا « الزغبىُّ » يخترقُ بنا مَلَاوِىَ الدروب والحارات ، وهو آخذٌ بيدِ « خيرى » يجرُّه جرّا .

وفى أثناءِ مسيرنا كان « الزغبى » يُطْنِبُ فى الحديث عن « الحاجّة فاطمة » ويتفنّن فى وصف دارها ذاتِ الأسرار . وما زال يحدِّثنا حتى بلغ بنا بيتاً عتيقاً بابُه ضَخْم فَسِيحُ الجوانب ، فوقف « الزغبىّ » عندَه ، وأومأَ إلينا أن نلتزمَ الصمت ، وتقدم يَدُقُّ البابَ

على نحو خاصّ ، فانفتح طاق بدا فيه وَجْهٌ لم نتبينْ منه إلا صوتاً أجشّ يقول : مَنِ الطارق ؟

فأجاب « الزغبى » خافتَ الصوت : أنا « الزغبى » .

فلبِثَ الوجهُ لحظات ، كأنما يتثبَّت و يستوثق ، ثم توارَى عن الطاق .

وسَمِعْنا صَرِيرَ الباب وهو يتزحزح لِيَفْسَحَ لنا فُرْجَةً صغيرة ننفُذُ منها فى محاذَرَةٍ واحتراس ، و إذا بنا فى فِناءٍ تَمُوجُ فيه الظلمات ، وأمامنا ذُبَالَةُ شمعة يحملها شَبَح يتقدمنا ، ونحن فى أَثَرِه نخطو صامتين . . .

وجعلنا نتخبَّط في دهاليزَ ، ونتنقَّلَ على دَرَج ، ومال « خيرى » على أذنى يهمِسُ : ألا تخشَى أن يقتلونا ؟

فأجبتُه مؤكِّدا : لستُ أخشَى شيئاً !

وتهادَتْ إلى أسماعنا أنغامُ غِناء ، ونَقَرات طبل ، وكلما أمعَنَّا فى السير ، تجلَّت الأنغام وتعالت النَّقَرات . وما لبثنا أن وضحتْ لنا ضجة رَنَّتْ فيها ضحكات نساء ، فأحسستُ نشوةً تمتلكنى .

و بغتةً فَطَنْتُ إلى أن ذُبالةَ الشمعة قد اختفتْ ، وما هى إلا أن

استقبلتْنا قاعة رَحْبَة شَحَّ فيها الضوء ، فأضفَى عليها غِلالةً من الغموض والخفاء .

وأخذتْ عيني جمعاً من النساء في ثياب كاشفة ، وأوضاع متبذِّلة ، يُحيط بهنَّ رجال يتطوَّحون و يترنَّحون ، وهم يعابثون النساء في عربدة وصَخَب ، ومن حولهم يُدوِّى قَرْع الطبول ، وشَدْوُ الألحان .

وحانت منى التفاتة إلى « خيرى » فلمحتُه يدير بصره يَمْنَةً و يَسْرة وعلى فمه ابتسامة بلهاء ، وانحنى « الزغبى » علينا يقول :

تعاليا أُعَرِّفكُمَا « بالحاجَّة فاطمة » .

ومضَى بنا إلى ركن في القاعة ، تبينتُ فيه امرأة بادِنَةً ، تقدمتْ بها السن ، مُتلفعةً بخِمار ناصع البياض ، وهى تجلس جِلسةً رزينةً محتشمة ، على أريكة وَثيرَةِ الحشايا ، و بين يديها « نارجيلة » تجتذبُ أنفاسَها في هِينَةٍ ورِفْق ، ومِنْ مِعْصَمِها تتدلَّى سُبْحَة طويلة ذاتُ حبَّاتٍ غِلاظ .

ووجدتُنى أتدانَى من مجلسها أحييهـا في أدب ، فمسحتْ على رأسى تقول : ماشاء . . . ما شاء الله . . .

ثم ما عتمتْ أن صاحتْ بالخادم مجلجلةَ الصوت :

انظُرْ ياولد ما ذا يطلبُ ضيوفُنا « البكوات » . . .

وأخذْنا مجالسنا عن كَثَبٍ منها ، فتصدَّى « الزغبى » للخادم يتخيَّر لنا ما نشرب ، وأقبلتْ علينا « الحاجة فاطمة » تتحدَّث إلينا فى مختلف الشئون ، حتى إنها خَصَّتْ حياتَنا المدرسيةَ ببعض الحديث ، ولم تنسَ أن تزوِّدَنا بالنصائح والوصايا ، تحثُّنا على الاجتهادِ فى التحصيل .

وعَجِلَ الخادمُ إلينا بما طلب « الزغبيّ » من الشراب ، ولم يكنْ بينه و بين شراب الحانة كبيرُ اختلاف ، فَـكَرَعَ « الزغبيّ » من كأسِه ، وحَذَوْتُ حَذْوَه . وكانت « الحاجة فاطمة » تَلْحَظُنَا بعينٍ يَقظَى ، فانثنتْ على « خيرى » تسأله : لماذا لم تَشْرَبْ يا بُنَيَّ ؟

فطفِقَ يفرُكُ يديه ، وهو يغمغم و يتضاحك ، فأخـذتْ كأسَه ، وقرَّبَتْه من يدِه ، قائلة له : إنه شراب مفيد للصحة .

فتناول الـكأسَ منها ، وما لبثَ أن رفعَها إلى فمه .

وتابعتْ « الحاجة فاطمة » حديثَها إلينا ، بيد أنها حلَّقتْ بالحديث فى آفاق جـديدة متطرفة ، فراحت تقصُّ علينا أشتاتاً من الأضاحيك والفُـكاهات والنِّـكات . وهى فى الفَيْنَة بعد الفينة تَميلُ على طَرَفِ أريكتها فتَدْلِي يدها إلى زجاجةٍ تحتَ الأريكة تملأُ منها كأساً ، وسرعان ما ترفعُ الـكأسَ إلى فمها فى مسارّة واستخفاء .

ونَدَّتْ من « خيرى » ضحكة رنَّانة ، فالتفتُّ إليـه ، فوقع بصرى على كأسِه فارغة ، وإذا هو يشرئبُّ إلى الخادم ، طالباً إليـه كأساً ثانية !

وقَدِمَ على « الحاجة فاطمة » ثلاثةُ شُـبَّان يتخطَّرون فى أناقة وزهو ، فاستقبلتْهم تحييهم أحسنَ تحيـة ، وترحِّب بمَقْدَمِهم أجملَ ترحيب . فرأيتُ « الزغبىّ » يُهيبُ بنا أن ننهضَ ، وفيما نحن نتبَعُه مدبِرِين عن مجلِس « الحاجَّة فاطمة » سمعتُها تَصِيحُ بالخادِمِ مجلجلةَ الصوت : انظر يا ولد ماذا يطلُبُ ضيوفُنا « البـكوات » ؟

وسرعان ما انتظمتْنا حَلْقَةٌ من نساء ورجال ، فبرزتْ لنا من الجمْعِ ثلاثُ نسوة تقاسَمْتَنا بينهن ، فانبريتُ أعُبُّ من الشراب عبّا ، وألفيتُنى جَموحَ الحركة ، طَلْقَ اللسان ، أشعرُ بنزعة المغامرةِ تثورُ ثائرتها فى دمى لا خشيةَ ثَمَّةَ ولا استنكاف .

وتواردتْ المشاهدُ لا أَضْبِطُ معها وَعْـيِى ، ولا أملكُ زمام إرادتى ، فـكأنما قد طوانى تَيَّار عاصف من أصوات وحركات .

ولستُ أنسى أنى لَمَحْتُ «خيرى» على رأسه طُرطور ، وقد لَفَّ خاصرتَه بِنِطَاقٍ حريرىّ ، وشرع يَرْقُص ، على حينِ أَحْدَقَ به الجَمْعُ يغنون ويصفّقون .

وكنتُ أحياناً يَدْهَمُنِي فتور، فتغمرُنى غاشيةٌ من الظلمة والصمت أُخْلِدُ فيهما إلى غيبوبة، ثم إذا أنا قد استيقظتُ فجْأة على هَيْجَةٍ من تصايح وغناء وإيقاع، فلا ألبثُ أن أخوضَ مع الجمع غِمَارَ العربدة والضوضاء.

ومن عجيبِ أمرى أنى كنتُ كلما تطلعتُ إلى وجه الغانيــة التى تجاورُنى، رأيتُنِي أتمثلُ وجهَ « تهانى » بسَّاماً يُغْرِينِي به، فأجدُنى قد انهلتُ عليها أُوسِعُها ضمّاً وتقبيلا.

وتوالتْ الضجة، واشتدَّ على رأسى وَقْعُها، فلم أَعُدْ أستطيع تمييزَ شىء مما يجرِى حولى. وانتبهتُ إلى أنى أترجَّحُ فى مركبة تُــكَرْكِرُ، وخُيِّلَ إلىّ أنى سمعتُ « الزغبىَّ » يهزُّنِى قائلا:

أُصْحُ يا « سامى » . . . دنوتَ من البيتِ.

وأحسستُ بعد قليل بذراعين تحملاننى، فتصعَدان بى فى الدَّرَج، وكأنى أسمعُ صوتَ « مدبولى » يقول: هل أنتَ أحسنُ حالا؟

وقضيتُها ليلةً ثقُلَتْ علىَّ وطأتُها، وفزَّعتْنِي أحلامُها، إذ كان يتراءى لى أنى أشتبكُ فى مَعْرَكةٍ حامية بين أخى تارةً وشيخِ الخفر تارةً أخرى!

١٧

لذَّ لى هـذا اللونُ من حياة العبث والهوى ، ولم أَعُدْ أكتفى بِالاختلاف إلى منزل « الحاجة فاطمة » وحدَه ، فقد عرفتُ الطريقَ إلى أشباهٍ له ونظائر ، حتى أصبح لى فى ذلك الميدان مكان مرموق ، وكأنى آلَيْتُ على نفسى ألا أعودَ إلى البيت ليلةً غيرَ مخمور .

وازداد تخلُّفى عن المدرسة ، حتى أصبحتْ أيام حضورى تَعْـدِلُ أيامَ مَغِيبى أو تقلُّ عنها عددا .

واقتضَتْنِى هذه المعابثُ مَزِيداً من النفقات ، فكنتُ أفزَعُ إلى زوج أخى ، وهى فى حجرتها التى لم تكن تَرِيمُها إلا فى النَّدْرة ، وكأنما ألزمتْ نفسَها أن تكون فيها سجينةً بلا سَجّان . وأظلّ أتلطَّفُ بها فى طلب المال ، وأتحوّلُ كلَّ حيلة للحصول منها على ما أطلب ، متفنناً فى التعليل والتسويغ ، ولا أزال كذلك حتى أظفرَ بِبُغْيَتِى مرةً بعد مرة .

على أن زوج أخى كانت سخيةً علىّ ما وَسِعَها أن تسخو ، تأبَى أن تردَّنى خائبَ الأمل ، ولكنها كثيراً ما استبقَتْ يدى بين يديها تهزّها فى حُنُوّ ، وهى تحدّق فى عينى قائلةً لى : كن عاقلا يا بُنَىَّ فى تصرفاتك ، وحاذِرْ أن تُغْوِيَك نزغات السوء .

وكان يطيبُ لى أن أطيلَ جلوسى إليها ، أحاولُ أن أفاكهَا وأن أسرِّىَ عنها ، ولكنّ الكآبة التى رانَتْ على هذه الحجرة كانت تزيدُنا أحياناً على صمت مُطْبِقٍ ، فألبثُ قُبَالَةَ زوج أخى أرنو إليها كاسفَ البال ، وهى قابعة فى ركود واستسلام ، على عينيها نَظَّارتها الزرقاء تزيد مُحَيَّاها من شحوب . وأجدنى أهمهم :

حتى متى تظلين فى هذا العذاب ؟

— هذا أمر الله يا بُنَىّ !

فأشدُّ على يدها أقول :

لماذا لا تخرجين للنزهة والترفيه عن النفس .

فتربِّتُ كتفى متنهدةً تجيب :

أنت طيبُ القلب يا « سامى » ، أعلم أنك تحبّ الخير لى . . . انهَضْ يا بنى ، فتمتع بشبابك ، فالدنيا لأمثالِك !

أما أخى فقد أصبح يزور الدار زيارةَ الضيف ، ويلوحُ فيها كما تلوح سحابة الصيف . . . وكنتُ أتنكَّبُ عن مرآه ، ولكننا كنا نتلاقَى اتفاقا ، فلا يزيد ما بيننا على أن أحييَه على كُرْه ، فيعقِدُ لى جبينَه ، ويَمُطُّ شفتيه ، وهو يردّ تحيتى مغمغِماً لا يُبِين .

ولطالما كان يَغلُو بى فضولى ، أريد أن أعرفَ أين تسكن « تهانى » ؟ وكيف تعيش ؟ وعلى أى نحوٍ تعاشر أخى ؟ فأكاشف « أم خضير » بمُرَادِ نفسى ، فتُنْهِى إلىّ أطرافاً من الأخبار والأحداث ، تَهِيج بها رغبتى فى طلب المزيد .

وحان يوم كنتُ فيه أعتلى مركبتى ، فبرقَتْ فى خاطرى فكرة هيمنتْ علىّ ، فهمستُ فى أذن « مدبولى » بكلمات ، فنظر إلىّ مدهوشا يهزّ رأسه هِزَّةَ الِامتناع ، ولكنى ألححتُ وأصررتُ ، فوجَّهَ قِيَادَ المركبة وِجْهَةً أخرى ، ومضى بى إلى حيثُ أريد .

وجازت المركبة بدار فَيَّاحة تُحِيط بها حديقةٌ رشيقة ، فالتفتَ « مدبولى » إلىَّ غامزاً بعينه ، مُومِئاً إلى الدار ، ثم لَسَع ظهرَ الحِصان بسوطه ، فانطلقتْ عَجَلات المركبة تطوى الطريق .

وملكتْنى نشوةٌ حين ظَلِلْتُ أتتبع الدارَ بنظرات منهومة ، والمركبةُ تنأى بى عنها فى غيرِ مَهَل .

وبغتةً أمسكتُ بيد « مدبولى » أقول له : قِفْ !

— لماذا ؟

فَشَدَدْتُ عِنان الحصان من يدِه ، ووقفْتُ المركبة وأنا أقول : ستنتظرنى قليلا .

ونزلتُ عن المركبة وَثْباً ، وتوخيتُ الدار ، وأنا أتلفَّت محاذِراً أن يرانى أحدٌ ممن أعرف ، وما إن قاربتُ البابَ حتى لمحتُ مركبةً فخمة مُقْفَلَة تبارِحُ الدار ، فانزويتُ أرقُب ، وجازت المركبةُ غيرَ بعيد منى ، فإذا فيها أخى و « تهانى » تتألَّقُ على وجهيهما البهجةُ والمَرَح ، فاضطربتْ نفسى ، ورجعتُ إلى مكان مركبتى ، تتقاسَمُنِى مشاعرُ متناقضة. وما كان أشدَّ دهشتى إذْ رأيتُ المكان خالياً من المركبة ، فجعلتُ أدور يَمْنَةً ويَسْرة فى تعجّب وحيرة ، و بعدَ لأْيٍ رأيتُ « مدبولى » مترجِّلا يبحث عنى ، فصحتُ به : أين المركبة ؟

— خَبَأْتُها فى زُقاق هنالك . كدتَ تُوقعُنى فى بَلِيَّة وشرّ ، فقد لمحتُ مركبةَ أخيك قادمة ، فسارعتُ إلى الاختباء .

ووافيتُ البيتَ ، لا يبرَحُ رأسى مشهَد « تهانى » فى صُحبة أخى وقضيتُ فى الحديقةِ ساعةً تراوِدُنِى فكرة معيَّنة ، وأنا أرسُم لتحقيقها خطة محكَمة ، وزُهِيَتْ نفسى بما أحسستُه من جرأتى ومَضاء عزمى .

وفى صبيحة غدى ، كانت تلك الفكرةُ المعينة قد اختمرتْ فى رأسى ، ولم يَعُدْ لى مَصْرِف عن إنفاذها فى غير وَناء . فخرجتُ من الدارِ مشغولَ البال بما أنا فيه ، ألتمس فى التَّجوال فُرْجَةً وتسرية . وشَدَّ ما أدهشنى أن أطالعَ وجهاً طال مَغِيبُه عنى سِنِينَ ، ذلك هو وَجْه القَزَم

المُشَوَّه ، صبيّ البستانى القديم . . . إنه « العيوطى » الذى طَرَده أخى شرَّ طَرْدَة !

اقترب منى هابطاً على يدى يقبّلها ، وهو يقول فى مَسْكَنة :

الحمدُ لله على أنك بخير يا سيدى . جئتُ أراك يا سيدى !

فعَجِبْتُ لذلك الذى عَهِدْتُه متمرِّداً شَغُوبا ، كيف صار اليوم متخاضِعا ذَليلًا ؟ فقلت له :

كيف أنتَ يا « عيوطى » ؟ أين كنتَ هذه السنوات ؟

— كنتُ فى الصعيد أعمَل .

وجعلتُ أتفرّسُ فيه ، فخُيِّلَ إلىَّ أنه قد تقاصَرَ عن ذى قبل ، وأن أخاديدَ وجهِه قد مَشَى بعضُها فى بعض ، وأن جبهتَه بها نُدُوب غائرة ، وأن فَمَه قد تحطمتْ فيه الثنايا .

فقلتُ له فى إشفاق : وماذا تعمَل الآن ؟

فتطلع إلىَّ يَفْرُكُ يديه، ويبتسم قائلا : أبحث عن عمل .

وأخذتُ أخطو فى الطريق ، وهو بجانبى يتحدَّث إلىَّ حديثَ هِجْرته إلى الصعيد ومُقامِه فيه ، وتنقُّلِه بين النُّجُوع والأصقاع ، مشاركاً فى شَقِّ الترع ، وتمهيد الجسور ، يزاول ألواناً من المغامرات ، ويذوقُ من العيش طَعْمَيْه الحلوَ والمرَّ .

وكنتُ فى أثناء حديثِه لا أُلْقِى له سمعى كلَّ الإلقاء ، فقد حلَّقتْ بى الخواطرُ فى آفاق أخرى ، كثيراً ما كانتْ تتراءى فيها « تهانى » مع أخى تحويهما المركبةُ الفخمة .

ووجدتُنى أُدْلِى بنظرى إلى « العيوطى » وقد لمحَ فى رأسى خاطر جرىء ، فقلت له :

اُلْقَنِى غدا . . . أنا فى حاجةٍ إلى من أثِقُ به ، لِيُنْجِزَ لى أمرا .

وما أسرعَ أن دسَسْتُ فى يده مِنْحة طيبة من النقود ، فجعل يقول :

لا حرَمَنِى الله خيرَك . . . أنا طَوْعُ أمرك !

ولما لَقِيتُ « العيوطى » فى غدٍ خلوتُ به أرسُم له مهمته ، وأفهمتهُ كيف ينجزها على خيرِ وجه ، ورغبتُ إليه فى أن يأتىَ إلىَّ كلَّ مَساء بما عنده من الأخبار .

ومضتْ أيام كنتُ أرتقبُ فيها كلَّ ليلة مَقْدَم « العيوطى » علىَّ ، فأنتحى به ناحيةً أسأل وأستفسر ، متقصّياً فى السؤال والاستفسار ، وهو ينفُض لى ما وراءه فى حماسة ويقظة واهتمام .

وحلَّ يوم بلغتْ فيه مهمةُ « العيوطى » منتهاها ، فقد أنهَى إلىَّ أن « تهانى » ترحِّب بِمَقْدَمى عليها ، وأنها فى ارتقابِ فرصةٍ تتحيَّنُها لألقاها فى دارها خُلْسَةً وراءَ الأنظار . . .

وفى وقتِ الظهيرة من غدى ، رجعتُ إلى دارى ، فإذا أنا أجد « العيوطى » بالباب ينتظر ، مهتاجَ النفس ، متهللَ الوجه .

فبادرتُ أسأله : ما وراءك ؟ ماذا أسرعَ بك ؟

فأمسكَ بيدى ، ومضى بى صامتاً خطوات ، وجعل يشرئبُّ إلىَّ وهو يهمس قائلا : إنها فى انتظارِ قدومك عليها عصرَ اليوم . . .

فوقفتُ مأخوذاً لا أملِكُ سكينةَ نفسى إزاء هذه المفاجأة .

وماعَتَّمْتُ أن قلتُ : كيف السبيلُ إلى دخولِ المنزل ؟

فابتسم ابتسامةَ دهاء وتخابُث ، وقال :

هـذا شأنى . . . كُنْ مطمئنا .

وأمضيتُ الوقتَ دائبَ الحركة ، موصولَ السعى ، لا أنجزُ عملا ، ولا أعرفُ لى من قَرَار . وطالما وقفتُ أمام صِوَانِ الثياب ، أوازنُ بين الُحلَلِ جديدها وقديمها ، أيُّها ألبس ؟ وأيُّها أَلْيَق ؟ وطالما بعثرتُ أربطة الرقبة أحـدِّقُ فيها لا أدرى ماذا أتخيرُ منها ؟ حتى دقتْ ساعةُ الحائط تؤذِنُنِى بأن الموعدَ قد أزِفَ ، فرَدَدْتُ باب الصِّوان أُغْلِقُه ، وقد استقرَّ رأيى على ألا أضيعَ وقتى فى استبدال ملبس بملبس . ووجدتُنى أَمْثُلُ أمامَ المِرْآةِ عجلانَ أُصْلِحُ من هِنْـدامى ، وأُطَرِّى شعرى . ثم ما هى

إلا أن عَدَوْتُ أقفِز على الدَّرَج ، حتى بلغتُ بابَ الدار ، فعثَرتُ « بالعيوطى » كامناً يَرْصُدُ نزولى .

وسرنا معاً فى خُطاً خِفاف ، حتى صادفتْنا مَركبةُ أجرة ، فاستوقفها « العيوطى » وطلبَ إلى السائق أن يَقْصِدَ بنا جهةً أجهلُها ، فسألتُ « العيوطى » فى ذلك ، فأجابنى :

لانستطيعُ الذهابَ إلى بيت « تهانى » توًّا... علينا أن نمهِّدَ للأمر !

وصَعِدنا فى المركبة ، فمضتْ بنا تُكركر ، و « العيوطى » يشرح لى ما دَبَّر من خُطة ، ثم جعل يدلُّ السائق على الطريق .

ونزلنا عن المركبة أمام دار زَرِيَّةٍ مستهدِمة ، فسبقَنى «العيوطى» داخلًا فيها ، وأنا على أثَرِه ، حتى أفضَى بى إلى حجرةٍ مُعْتِمَة تهبّ منها رائحة كريهة ، وتركنى هُنَيْهة ، ثم عاد إلىّ يحمل صُرَّة ففضَّها بين يدىّ ، وأخرج منها ثوباً نِسْوِيًّا وبُرْقعا ومُلاءة سوداء ، وهو يقول :

البَسْ على بركة الله !

فألقيتُ على الملابس نظرة استغراب ، وعجبتُ كيف يريدُنى « العيوطى » على أن أتزيَّا بهذا الزِّىِّ ؟ وانفجرتُ ضاحكا على حينِ بغتة ، حتى دمعتْ عيناى ، فهزَّنى « العيوطى » قائلا :

حانَ الموعدُ . . . هيَّا . . . لا نُضِعِ الوقتَ !

وشرعتُ أستبدل بملبسى هذا الزِّىَّ النِّسْوى ، يعينُنى « العيوطى » على إحكام ارتدائه والظهور به .

وانتابتنى نَشْوَة السادِرِ الطليق ، فجعلتُ أقهقه فى غير مبالاة ، وخرجتُ مع « العيوطى » فى لَبُوس التَّنكُّرِ ، فأقلتْنا مركبةُ أجرةٍ تنهبُ بنا الطريق إلى دار « تهانى » ، فلما كانتْ منها عن كَثَب ، نزلنَا عن المركبة نترجَّل ، ووقف « العيوطى » يقول :

تشجَّعْ ، واضْبِطْ نفسك ، وادخلْ على بركة الله ! . . . ادخُل وحدَكَ من الباب الخلفىِّ . . . إنها فى انتظارك هناك .

ونحوتُ نحوَ الباب ، فما إن دخلتُ حتى وجدتُنى فى رَدْهَة صغيرة ، فقطعتُها وقلبى دائبٌ خفوقُه إلى بابٍ على اليمين ، ونَفَذْتُ منه محاذِراً سريعَ التلفت إلى دِهْليزٍ استقبلتْنِى فيه هَبَّةٌ من عطر ليس عنى بغريب . . . فسرتْ فى أوصالى انتعاشة ، وانبعثَتْ فى مشاعرى يَقْظَة ، ورأيتُنى أخطو نَشْوانَ .

وبغتةً برزتْ لى « تهانى » ، فوجدتُنِى أخِفّ إليها ، وألفيتُها تأخذ بيدى ، وهى تحدِّقُ فىَّ ، وتَكْبتُ فى فمِها ضَحِكَات .

وراعنى منها أولَ ما راعنى عيناها الجيَّاشَتان بأحاسيسَ فوَّارة عارمة ، فلم أعد أقوَى على أن أطيلَ فيهما النظر .

وسرنا معاً ، فقالت لى فى همس :

شكرتُ لك تفكيرَكَ فىّ ... جميلٌ منك أن تتكبّدَ هذه المشقاتِ فى سبيل لقائى . . . إن المغامرات تستهوينى كلَّ استهواء .

فضغطتُ يدَها وأنا أهمهم : فى سبيلك كل صعب يهون !

وشعرتُ فى هذه اللحظة بأنى أكاد أختنق تحتَ وطأة ذلك البرقع المشدود على وجهى ، فهممتُ بأن أفكَّ وَثَاقَه عنى ، فعاجلتْنى « تهانى » تمنعنى ، وهى تقول : دَعْه قليلا .

واجتزنا المَمرّ ، فأسلمَنَا إلى حديقة محدودة خلفَ الدار خاصَّةٍ بالحريم ، فى طَرَفها مَنْظَرَة خشبيَّة رشيقة ، فلما دخلناها أغلقتْ « تهانى » بابها إغلاقاً محكماً ، وهى تقول لى :

هنا يَسَعُك أن ترفَعَ بُرْقعك ، وأن تخلع مُلاءتك أيضا !

فما أسرعَ أن فعلتُ .

وكانت المَنْظَرَة ذاتَ أثاث طيّب يَعْمُر بوسائل الراحة والرفاهة ، فجلستُ على متكإٍ وَثِيرِ الحشايا ، وأنا أمسَح وجهى، وأسوِّى شعرى، فوقفتْ « تهانى » ترنُو إلىّ ، ثم قالت :

لا أستطيع أن أجالسَك وأنتَ فى زِىِّ امرأة . . .

ثم جذبتْ من تحت إحدى الوسائد مَنَامَة هفهافةً ناولتْنى إياها ،

فقمتُ إلى ركن أخلع ثوبى النّسْوىّ ، وألبس المنامة ، على حينِ أخذتْ « تهانى » تنظر فى مِرْآة لهـا ، تستكمل زينتَها ، فلما فرغتُ من أمرى طابَ لى أن أفاجئَها ، فأختلسَ منها قُبلة فى عُنُقِها ، ففطنتْ إلى ما أريد ، وتنحّتْ بوجهها عنى ، وهى تقولُ فى ملاطفة :

ما ذا كنتَ تبغى أن تفعل ؟ أَعَزَبَ عنك أنى زوجُ أخيك ؟

ونظرتْ إلىّ تتبينُ أثرَ قولها فى نفسى ، ثم استأنفتْ تقول :

اجلِسْ قُبالتى نتحدث .

فجلستُ حيثُ أشارتْ ، ورأيتُها تُندّى مِنْدِيلها بالعِطر ، وتَدْلِك به وجهى فى دُعابة ورِقّة .

وكانتْ بيننا لَحظَاتُ صمت ، عَبِثَتْ فيهـا « تهانى » بِقِلَادَةٍ تَتَدَلَّى على صدرها ، وهى تَرْقُبُنِى ، وعلى ثَغْرِها ابتسامةٌ خفيفة .

ثم قالت : لا أحسَب « مودّة هانم » إلاَّ حاقدةً علىّ !

ونهضتْ تخطُو فى خُيَلَاءَ ، فمططتُ شَفَتِى وأنا أجيبُها :

لم يكن من ذلك شىء !

فعادتْ تواجِهُنى ، وما زالتْ القلادةُ بين أناملها تعبَث بهـا ، وتقول : إنها تَمُوتُ كَمَدًا . . .

وتعالتْ من فمها ضِحْـكة مجلجِلة هازئة ، وقصدتْ إلى مِنْضَدَةٍ

صغيرة ، فتناولتْ منها مِرْوَحَةً جعلتْ تبسُطها وتطويها ، وتتظاهر بأنها تتفحَّصها فى دقة ، فشعرتُ بأنى أضيق بما تقول ، ولكنى كَظَمْتُ شعورى ، وأجبتها غيرَ مكترث : واقعُ الأمرِ أن « مودَّة هانم » تواصل حياتَها المألوفة ، كما هى حالُها من قبل .

فاقتربتْ منى ترمينى بنظرةٍ باهرة ، ومالتْ على كتفى تداعبُنى بِمِرْوَحَتِها ، وقالت : لا تتكلفْ إخفاءَ الحقيقة ، فقد شاعَ أمرها وذاع . . . أنتَ لا تُحْسِن الدفاعَ عنها ياصاح !

وفاجأتنى تَلْطِمُ خدِّى بِمِرْوَحَتِها لطمة خفيفة ، وهى تسترسل فى تضاحُكِ اعتزازٍ واستعلاء .

واستدارتْ ماضيةً عنى ، فانتفضتْ أوصالى من حَمِيَّةٍ وغيظ ، وسألتُ نفسى : أكانَ قُدومى إلى هذا المنزلِ لأسمعَ تلك القوارص ؟

وألفيتُنى أنهضُ خلفها وأنا أقول : مالَكِ ولهذا الكلام ؟

فعدَلَتْ بوجهها إلىَّ تُجيب فى تهكم :

معذرةً يا « سامى » . . . لم يكنْ فى علمى أنك حَسَّاسُ العواطف نحو « مودَّة هانم » إلى هذا الحدّ ! . . .

— إنها زوجُ أخى .

— زوجُ أخيك . . . لولا إشفاق على هذه العجوزِ لما تركتُ

أخاكَ يُبْقِى عليها إلى اليوم . . . فى مُكْنَتِى أن أجعلَه يخلعُها من عِصْمَتِه فى أىّ وقت أريد !

فصحتُ بها ، وقد تضرّج وجهى غضباً :

حسبُكِ يا « تهانى » ... الزمى حدَّكِ !

فاعتدلتْ قُبالَتى تضع يديها على كتفى ، ونظرتْ إلىَّ ، ثم قالت ساخرة : لِمَ هذه الحِدَّة ؟ رَوِّقْ دَمَك !

ولَطَمَتْ خدى بِمِرْوَحَتِها لطمةً أشدَّ من الأولى ، وهى تقول :

حقًّا إنك لقليلُ الذوق فى مخاطبتى . . . أنا زوجُ أخيك ، ولى عليك حقوق !

فوقفتُ حِيالَها حيران ، يخوننى منطِق ، ولا يسعفنى تدبيرى .

وكنتُ أحدِّث نفسى وأنا أحدِّق فيها :

ماذا يجب أن أعمَلَ إزاءَ هذه الغانيةِ المتمرِّدَةِ الشَّغُوب ؟

وتواقَفْنا وقتاً نتراشَق بالنظرات ، وما هى إلا أن رأيتُها تهبِط علىّ فتأخذُ برأسى بين يديها ، وتُشبِعُنى تقبيلا . . .

١٨

تتابعتْ الأشهر تَسِمُ حياتى بهذا المِيسَمِ الجديد ، مِيسَمِ العلاقة الأثيمة بينى و بين « تهانى »، فكنتُ أتحوَّل أشتاتَ الحِيَل لملاقاتها فى منزلها بِنَجْوَةٍ من أعين الرقباء ، وكان « العيوطى » همزةَ الوصل فى هذه الزَّوَرَات الخفيَّة ، وظلت المَنْظرة هى المُلْتَقَى ، ، أقضِى فيها مع « تهانى » سُوَيْعَاتٍ فى رعايةِ الشيطان .

ما أعجبَه هَوًى يربِط بين قلبينا : أنا و « تهانى » . . . فما كانت جَلساتنا مَحْضَ صفاء ، ولا خَالِصَ متعة و إيناس ، بل لقد كان يَشُوبها دَوْمًا ضروبٌ من المشاحنات ، تُثِيرها « تهانى » بينى و بينها ، وتُمِضُّنِى فيها بما يرنِّح أعطافها من كبر واستطالة وتأمّر .

وكان شَغَبُها علىَّ ينتهى أبداً بأن تَعْمِدَ إلى مِرْوَحَتِها ، فَتَلْطِمَ بها وجهى ، حتى لقد حانتْ ساعة آذَتْنِى لَطَمَتُهَا ، فوجدتُنى أنتزع هذه المِرْوَحَةَ من يد « تهانى » وأنا أقولُ ثائراً :

إذا لم تَكُفِّى عن هذا العَبَث فإنى أُرِيكِ ما تكرهين .

ـ لا تستطيعُ معى شيئاً . . .

فرأيتنى أرفع المِرْوَحَة فى وجهِها ، أُوشِكُ أن أهوِىَ بها عليه ،

وإذا أنا أنهالُ على المِرْوَحَة تمزيقـا ، وأَمْزُقُ من المَنْظَرَة مرُوقَ القَذِيفة فى الفضاء .

وأقسمتُ غيرَ مرة ألا تطأَ قدمى هـذا المنزلَ الكريه ، وألا أواصلَ هـذه الغانيةَ النكراء ، ولكنى كنت أَحْنَث وأحنَث ، وأتعرضُ لألوان من المغامرات والأخطار ، لكى أستأنفَ مع « تهانى » تلك العلاقة المحرَّمة الغَبْرَاءَ .

ولم أسترحْ من مشاغبات المِرْوَحَة طويلا ، فلقد كنتُ كلما مَزَّقْتُها لا تلبث أن تبرُزَ فى يدِ « تهانى » على نحوٍ جديد !

ويوماً ضِقْتُ بلطمة المِرْوَحَة ذَرْعا ، فما إن مَسَّت وجهى ، حتى انتفضتُ أجتذبها من يد « تهانى » ، وهممتُ بأن أمزّقها شرَّ ممزَّق ، كما هو دأبى من قبل . ولكنى وجدتُنى أمتشقها فأضربُ بها وجهَ « تهانى » مرةً بعد مرة فى غِلْظَةٍ وعنف ، ورأيتُ « تهانى » قد رِيعَتْ مما أصابها ، وعاجلتْها بَهْتَة ، ثم ما لبثتْ أن ولولتْ وهى تحْمِى وجهها من سَقَطات المِرْوَحَةِ ، وإذا هى تتهاوَى ويستبدُّ بها نَشِيج . . .

ووقفتُ حِيالَها كالمذهول ، لا أدرى كيف صنعتُ ما صنعتُ ؟ واستمرتْ « تهانى » تَنْشِج كأنها طفل يتوجَّع، فشعرتُ بقلبى تُداخله

اللَّوْعَة ، وسـألتُ نفسى : أكانتْ تستحقُّ منى هـذه القسوة ؟

ورفعتْ رأسها إلىّ ، تُصَعِّد نحوى نظرة حامية ، وهى تقول :

أُغْرُب عن وجهى !

ولمحتُ على خَدَّيْها أثر الضربات ظاهراً شديدَ الإحمرار ، فما تمالكتُ أن أقبلتُ عليها ، آخذاً بكتفها ، وهى تَلْوِى كَشْحَها عنى ، وتقول : دَعْنى . . . . دَعْنى !

فتشبثتُ بها ، قائلاً فى لهجة استرضاء :

لم أكنْ أقصد أن أسوءَكِ . . . أخطأتُ . . . لا عليكِ !

وجذبتُها إلى صدرى ، واندفعتُ أنثر قبلاتى على وجهها جُزافا .

وترادفتْ الأيام ، تتوالىَ فيها زوراتى لبيت « تهانى » . . . وكان أكبرَ ما استرعَى نظرى أنه منذ ذلك اليومِ الذى قسوتُ فيه عليها اختفتْ المِرْوَحَة كلَّ اختفـاء ، ولم يَعُدْ لهـا فى حياتنا من أثر !

وجَدَّ من أمرى أنى أحسستُ فى علاقتى « بتهانى » نزعةَ العِزة والشُّموخ ، وعلى الرغم من أنها قد استكانتْ لذلك الانقلابِ الذى طرأ علىّ ، فقد كانتْ فى الحين بعد الحين تعاودها الشراسة والصَّلَف ، تحاول أن تستردَّ سلطانها المسلوب ، فَأَرانى قد سارعتُ إلى العُنْفِ

بها ، غيرَ متورِّع عن ضربها ، حتى تَفِيءَ إلى سكينة وانقياد .

وعلى مَرِّ الأيام كنتُ أزداد تطاوُلاً عليها ، مع كَلَفى بها ، وانجذابى لفتنتها ، فلا تكاد تَبْدُرُ منها هَنَات حتى ألتمسَها سبباً لانتهارها وتأديبها فى غير هوادة . بل لقد كنتُ أتجنَّى عليها ، وأدبِّرُ لها من حبائلِ المُنَا كَدَات ما يُوقِعُها تحت طائلةِ العِقاب الصارم . فإذا بلغتُ من ضربها وإيذائها مَأْرَبى أحسستُ نشوةً تتسرَّب فى دمى ، واعتداداً يملأُ أقطارَ نفسى .

وذاتَ يوم ونحن فى شُجون من الأحاديثِ ، ألفيتُها تَفْجَؤُنى دونَ مناسبة بقولها : ماذا تعرِفُ من أمرِ « فتحية » ؟

فصدَم سؤالُها نفسى ، ولم أُحِرْ من جواب ، وجعلتُ أَحْدِجُها متفحِّصاً ، فراحتْ تخطو أمامى فى خُيَلَاءَ ، وفى فَمِها لِفافتها تنفُثُ دخانَها فى غير مبالاة . وواصلتْ حديثَها تقول :

« فتحية » ابنة ضابط المدرسة . . .

وأسبلتْ لى جفنَها فى خُبث ولؤم ، وتَعَمَّدَتْنى بنفثة من دخانها فى قِحَة وجرأة ، فنهضتُ غضبانَ حَمِيًّا أمسِك بيدها فأضغَطُها وأنا أقول : ماذا تَقْصِدِين بقولك هذا ؟

فجذبتْ يدَهَا من يدى ، وهى تقول :

عجبتُ لك ! . . . أيُّ ضيرٍ عليَّ في أن أسألك ؟

فرفعْتُ يدي أهمُّ بأن ألطِمَها ، فرأيتُ وجهها قد اكفهرَّ ، واكتسى سَحْنَةَ نَمِرَةٍ توشك أن تنقضَّ على الفريسة .

وسمعتُها تتحدَّاني بقولها : أأنت تبغي أن تضربَني من أجل هذه المخلوقة الحقيرة ؟ . . . جرِّبْ ما تريد !

فهجمتُ عليها ، ولكنها كانت هذه المرةَ خَصْماً غلاَّباً لا يَلين ولا يستكين . ونَشِبَ بيننا شِجار شديد ، شَعَرْتُ فيه بأظفار « تهاني » كأنها نِصال مسنونة تَعِيثُ في وجهي فساداً . . .

وخرج كلانا من المعركة : شَعْرُهُ منفوش منتزَع ، وثيابُه مهلهلة ، وجراحُه تَدْمَى . وما هي إلا أن سقطْنا جميعاً على أديمِ الأرض محطَّمَيْن لا نملك لأنفاسنا تصعيدا ، وجعل كلٌّ منا ينظر إلى صاحبه ، فيرى فيه صورةَ مخلوق شريد نَبَذَتْه الحياة !

ولبثْنا نتبادَل النظرات في صمت ، وأخذتْ « تهاني » تمسَح جبينَها بيدها ، ثم رفعتْ رأسها ، تدور ببصرها يَمْنَةً ويَسْرَةً ، فَحَزَرْتُ أنها تبحث عن منديلها ، فأخرجتُ منديلي أقرِّبه إليها ، فإذا هي تدفَع يدي عنها ، فتدانيتُ منها على مَهَل ، وجلستُ بجانبها أمسَح وجهَها في رِفق ، ثم أمسكتُ بيدها وأنهضْتُها أُجلِسُها على المتَّكإِ ،

ثم قصدتُ إلى زجاجة العطر ، فعُدْتُ إليهـا أُنْشِقُها وأنضَحُ وجهَها ، ثم انثنيتُ أصنَع بنفسى ما صنعتُ بهـا ، وأخذتُ مجلسى بجانبها ، وأَرَحْتُ كَتِفِى على رأسها ، ولبثتُ ألاطف شعرها ، فلمحتُها تُرْخِى جفنها ، وألفيتُنى أقول كأنى أحدِّث نفسى :

ألا يمكنُ أن تظلَّ علاقتُنا فى صفاء ؟ وألاَّ تشوبَها تلك الأكدار؟

وامتدَّ بيننا صمت ، ولاحظتُ أن « تهـانى » قد أخذَتْها سِنَة من النوم ، ورأسُها يتوسَّد كتفى !

ولما قفلتُ إلى منزلى هذه الأُمْسِيَّة ، تصفحتُ ما دار فى زورتى « لتهانى » ، فبرزتْ لى « فتحية » تحتلُّ تفكيرى كلَّه ، وازدحمتْ ذِكْرَيَاتُهـا تَسُدُّ علىَّ كل منفَذ ، ولاح لى طيفُها يتنقَّل فى حجرتى مختلفَ الأوضاع ، فيبعث فى ذاكرتى مشاهدَ حياتها معى فيما سَلَفَ من أيامى .

وَظِلْتُ مهمومَ النفس ، مُزْعَجَ البال بهـذه المشاهد والأطياف ، فلم يهدَأ لى خاطر إلا بعد أن بنيتُ عزمى على أن أعمَلَ شيئاً من أجل « فتحية » . . . . . شيئاً حاسماً ينقذها مما تعانيه !

لا بدَّ أن أبدأَ ذلك من غدى . . .

وخلوتُ « بالعيوطى » أتقدَّم إليه بمـا أريد ، وطلبتُ منه أن

يسأل عن مُقام « فتحية » فى الضَّيْعَةِ التى حُمِلَتْ إليها ، وأن يستقصىَ أخبارها كل استقصاء . فَنُهِىَ إلىَّ بعد أيام أن زوجَها شيخَ الخفر انتقل بها إلى بلده الأصيل ، وأنه لا عِلمَ لأحدٍ بشىء من أخبارِها أو أخباره .

فقَرَّ عزمى على أن أواصلَ البحث ، وأتابعَ التحرِّى والتفتيش ، حتى أبلغَ مأرَبى من التعرُّف والتحقيق ، تمهيداً لما أقومُ به من عملٍ حاسم فى سبيل « فتحية » .

ولكن توالتْ الغَدَاة والعَشِىُّ ، وأنا لا أجِدُنى قد أبرمتُ فتيلاً !

١٩

وأذكُر أنى فى إحدى زَوَرَاتِى « لتهانى » وهى على صدرى أُطَوِّقُها بذراعى ، وأعيننُا موصولةُ النظرات ، وجدتُنى جَيَّاشَ النفس ، ألتهب افتتانا بتلك الإنسانة الخلابة التى أستمتع بها أروعَ استمتاع .

فأهويتُ عليها أقبِّلها وأضمّها ، كأنّى أخشىَ أن تضيعَ من يدى ، وسرعان ما هَمْهَمْتُ أقول : أيقبِّلُك أخى كثيرا ؟

فلاحتْ على ثغرها بَسْمة ، وأومأتْ برأسها علامةَ الإيجاب ، فشددتُ عليها قائلا : أنتِ تكذبين .

فردَّت علىَّ تقول : ولماذا أكذب ؟ لقد أخبرتُكَ بالحقيقة !

فقلتُ لها مَغيظا : ماذا عسى أن يكونَ من رجال هدَّمَتْه السنون، وألحَّ عليه الضعف ؟

فتعالتْ ضِحْكتها ، وتابعتُ قولى لها :

إنه يحسن التثاؤب والتمطِّى ، فأما غير ذلك فلا . . .

وأغمضتْ « تهانى » عينيها ، وهى تُدْنِى منى فَمها ، فأخذتُ شفتيها بين شفتىَّ ، وجعلتُ أتفنَّنُ فى تقبيلها وأنا أقول :

أخى لا يستطيع أن يقبِّلَك على هذا النحو . . . لا أسمحُ لكِ أن يَقرَبكِ أحدٌ سواى . . . لا أسمحُ لك بأن يمسَّ فَمَكِ إلاَّ فمى !

هِمْتُ « بتهانى » أشدَّ هُيام ، فلم أَعُدْ أطيق عنها بُعْدا ، وكثيرا ما كنتُ أقضى أياماً فى دارها ، حبيسَ تلك المَنْظَرة ، فأقاسمُ أخى حياته : مَطْعَمَه ومَشْرَبه وملبَسه ، فضلاً عن أنى أقاسمُه زوجتَه ، وذلك كله دون أن يعلمَ من أمرِه شيئا قلَّ أو كثر !

ولا أدرِى ما سرُّ تلك النشوة التى كانت تهزُّنى وأنا فى مَحْبِسى ،

حين كنتُ أحسُّ بأن أخي على مَقْرَبة مني ، يَدِبُّ في أرجاء البيت دَبيباً . . .

ما كُنْهُ تلك العاطفة الشاذَّة التي أخذتْ تنمو نُمُوَّها بين ضلوعي نحو أخي ؟

لماذا لا أَفْتَأُ أُمْعِنُ التفكيرَ فيه ، وقلبي ترعاه نارٌ تتلظَّى ؟

لقد شعرتُ على مَرِّ الأيام بأن تلك النزعة الشاذة تتجسَّم وتتضخَّم ، وأنها أشبَهُ ما تكون بوحش مفترِس يتنزَّى بين ضلوعي متحفزاً لِانفكاكٍ وَوِثَاب .

فأما الدنيا في عيني فقد اكتستْ أمامي صِبْغَة غائمة قاتمة ، ولطالما وجدتُني كأني أسمعُ وساوسَ نفسي تحدِّثني بأشياءَ تتمثلُ فيها الفجيعةُ والرَّهَب .

ومرةً سنَحَ لي خاطر مفزِّع ، فأردتُ أن أُفضِيَ به إلى « العيوطي » ليعينَني على إنفاذِه ، وخرجتُ أبحث عنه ، وأنا أشَمُّ رِيحَ الجريمة يَزْحَمُ خياشيمي !

ولما لَقِيتُ « العيوطي » انتبذتُ به مكاناً قصيًّا في داري ، وهممتُ بأن أناجيَه بذاتِ نفسي ، ولكن مَلَكَتْنِي رِعْدَة ، وخُيِّلَ إليَّ أن « العيوطي » قد انقلب شُرْطِيًّا يَحْدِجني بنظرة اتهام . . . وعن كَثَب

منه جُثَّة يَشْخُبُ دَمُها غزيرا .

فما عَنَّمْتُ أن أدبرتُ عن « العيوطى » حَثِيثَ الخطا ، وصَعِدتُ إلى حجرتى ، وانكفأتُ على فراشى مُلتاثَ العقل ، محمومَ الجسد ، أَهذِى بقولى :

مالى ولأخى ؟ ما مددتُ إليه يدى بسوء . إنى من دمه بَرِىء !

ورقدتُ فى حجرتى يومين صريعَ التهافُت والخمول ، تلازِمُ فراشى زوجُ أخى ، وتتعهَّدُنى بألوانٍ من الرعاية والعطف ، ولا تفتأُ تُطَيِّبُ الحجرة بالبَخُور الزَّكِىِّ . . .

وسمعتُها تقول ، وهى تضغَط يدى :

ألا تغيِّر من سلوكك يا « سامى » ؟ . . . ألا تهتدِى يا بُنَىَّ ؟ إنى أخشَى عليك مَغَبَّةَ ذلك الضلال !

وبعد أن تماثلتُ من تلك الوَعْكَة ، مضيتُ إلى « تهانى » أصل ما انقطع من علاقتى بها . فأقبلتْ علىَّ مشبوبةَ الشغف ، بالغةَ التَّرْحاب ، ترمِى بنفسها بين يدىَّ ، فأردتُ أن أستجيبَ لها ، وأن أُبارِىَ عاطفتها ، وإذا بِغشاوةٍ قد انسدلتْ بينى وبينها ، تنسابُ عليها دماء ، وعلى صفحتها يتخايَل وجهُ أخى جاحظَ العين ، فاغرَ الفم ، سليبَ الحياة ، وكأنه يُومِئُ إلىّ إيماءةَ اتهام . فارتددتُ خطوةً فى

فزع واضطراب ، وأسندتُ إلى المتكإ جسمي المتداعي ، والعَرَق يرفضُّ من جبيني . . .

وسمعتُ تهاني تقول : ما بك ؟

فأجبتُها زائغَ النظرات :

يبدو لي أني ما زلتُ موعوكا ، لم أسترجعْ صحتي بعد . . .

فأسعفتْني ببعض المنعِشات ، و بذلتْ جهدَها في التسريةِ عني .

وأدهشني من شأني أن هذه الظاهرةَ الجديدةَ كانت تعتريني في أغلب زياراتي « لتهاني » ، فلم أكنْ أجدُ من نفسي ذلك الإقبالَ الذي عَهِدْتُه نحوَها . إذا جلستُ إليها أراني قد تبلَّدَ حِسِّي ، وانغلقتْ نفسي ، ولبثتُ واجماً لا أنبِس ، فتنظر إليَّ « تهاني » وقد رابَهـا أمري ، ثم تَهُزُّني في شدَّة ، وهي تقول : أَفِقْ . . . ماذا جرَى لك ؟

— لا شيء !

— لقد خَبَا حُبُّك لي . . .

فتبدو على فمي ابتسامة كابية ، وأقولُ في غير اكتراث :

حبِّي لكِ على حالِه . . .

فتردّ عليّ بقولها : صارِحْني . . . إنكَ تكرَهُني !

— أقسمُ لكِ .

وأجدُ لسانى قد اعْتُقِلَ ، وريقى قد نَضَب ، فأنظر إلى « تهانى » وقد مالكها النشيج ، ولكنى أحسّ كأنى مُقَيَّد لا أستطيع البَراحَ من مكانى ، لأكفكفَ دمعَها الهامِى !

٢٠

صَحَوْتُ صبحَ يوم يؤزُّ سمعى نُواحٌ وعَوِيل . . .

واستبانَ لى أن أرجاءَ البيت كله تتجاوب بهذه الأصوات الباكية .

فقفزتُ من مضجعى وقلبى يَرْجُف ، وخرجت عادياً ، فرأيتُ « أمَّ خضير » تعترض طريقى وهى تضرِب صدرها ، ناعيةً إلىّ أخى .

فَجَمَدَتْ قدماى فى موقفى ، واسترسلتْ المرأةُ تذكُر أن أخى وُجِدَ فى فراشه مَيِّتاً لا حَراكَ به ، فقلتُ لها متلعثما :

كيف ؟ لقد لمحتُه بعينَىْ رأسى البارحةَ فى حجرةِ « مودَّة هانم » يجالسها ويتحدَّث إليها ، موفورَ العافية !

— جاء أجلُه يا بُنَيَّ !

وتركتُ المرأة ماضياً إلى مَخْدَعِ أخى ، فوجدتُ البـاب يتجمَّع عليه الخـدم فى ضجة وتصايح ، فشققتُ لى بينهم طريقا ، ودخلتُ الحجرة ، فألفيتُ « مودَّة هانم » بجانب السرير تنتحب ، وشاهدتُ أخى ممدَّداً مُسَجًّى ، فطفَرَ الدمعُ من ماَقِيّ ، وتقدمتُ من مكانه أحسِر عن رأسه المُلاءةَ البيضاء . فظهر وجهُه شديد الِامتقاع ، بالغ النحول . ورأيتُنى آخُذ بيده ، فأطبَعُ عليها قُبْلَةَ وَدَاع ، قبلةً حانية يتمثَّلُ فيها الندم والِاستغفار !

وجلستُ بجوار « مودَّة هانم » صامتاً ، مطأطئَ الرأس ، أسبَح فى ذِكْرَيَاتِ الأمس ، وأخيلةِ الغد .

وأحيَيْنا ليالىَ المأتَم ، وأخذ المنزلُ يستردُّ مألوفَ أحواله من قبل ، وازدادتْ أرملةُ أخى من عزلة واعتكاف ، فـكنتُ أقصِـد إليها أقضى معها أطولَ الأوقات ، محاولا ما وَسِعَنى أن أبثَّ فى نفسها رَوْحَ العَزاء والسَّلْوَى .

ولقد كان أكثرُ حديثها يدورُ حولَ أخى ، حولَ ذِكْرَيَاتِه وسوالف أحـداثِه ، فـكانت تُطْنِب فى الإشادة به ، وفى التمدُّح بخصاله ، وفى

الرجوعِ على نفسِها باللائمة، إذْ أساءتْ فَهْمَ مقاصِده، وتقديرَ الملابَسات التى أحاطتْ به .

وكثيراً ما كانتْ تؤكّد أن طِيبَةَ نفسِه وسلامةَ طَوِيَّتِه أمر لا يَرْقَى إليه شكّ ، وهـذه الطِّيبة والسلامة هى التى وَرَّطَتْه فى مأزِق تلك الفتاة اللّعُوب ، تلك الأفعى التى تَقْطُرُ سُمّا . . .

وفى إحدى جلساتنا رَنَتْ إلىّ ، وهى تسترسل فى الحـديث عن مآثِر أخى ، وقالتْ :

لا تحسَبَنَّ يا « سامى » أن أخاك كان يطوى لك بغضا . . . إنه كان بك شفيقا ، وعلى هنائك حريصا . لقـد طالما كشف لى عن خَبِيئَة نفسه نحوك، فعرفتُ مبلغَ عطفِه عليك، وبِرِّهِ بك. فأما ما كنتَ تشهده من ظاهرِ جفوته ، فذلك طبعُه الذى لم يكن له عنه مَحِيص .

ونهضتْ تتحامل على نفسها ، وأخذتْ بيدى ، وهى تقول :

تعالَ معى ، فقد حانَ الوقتُ الذى أُطلعكَ فيه على سرّ يتعلق بك .

وسارتْ بى إلى خِزانة فى ركن من الحجرة ، وفتحتْها ، وأخرجتْ منها صُندوقا كشفتْ عنـه الغطاء ، فإذا هو يحوى غوالىَ الطُّرَفِ والألطاف . وقالت لى وهى تُرِينى إياها واحدةً واحدة :

تلك من نصيبِكَ يا « سامى » ... إنها وَصِيةُ أخيك إلىّ أن أحفَظها ، لتكون لك ولعروسك معك .

وسكتتْ قليلا ، ثم استأنفتْ تقول :

كان أخوك أَرْغَبَ ما يكون فى أن يختارَ لك زوجاً تليقُ بك ، زوجاً من أشرف البيوتات ، تكونُ لك شريكَة العمر ، فتسعدُ بها طولَ الحياة !

٢١

ظَلِلْتُ حايفَ البيت أياما ، على صدرى يَجْثُمُ عِبْء فادح ، وفى رأسى معركة حامية تصطرع فيها أشتاتُ الخواطر والذكْرَيات ، وأمام عينى طيفُ أخى مسجَّى على سرير الموت ، وأنا راكع أَلْثَمُ يُمْنَاه .

ليت أخى يُبْعَثُ الآن لحظةً واحدة ، لأبثَّه ذاتَ نفسى ، وأجاهرَه بما أشعر به من ندم ، وأستغفره مما كان يساور خواطرى نحوَه من نزعات الشرّ .

ليتَه يُبْعَثُ الآن لحظةً واحدة ، أسمعُ فيها من فمه كلمةَ الرضا والغفران !

ما أحوجَنى إلى نَسْمَةٍ من الراحة والِاطمئنان تَرِفُّ على ضميرى المكروب ...

ووجدتُنى كلما ذكرتُ « تهانى » لاحقَنى شعورُ اشمئزاز وامتعاض ، فلا أستطيعُ أن أتصوَّرَ أنى مُلَاقِيها يوما ، وأنى مستأنفٌ معها أىَّ علاقة من علاقات الوُدِّ مُباحاً أو غيرَ مباح !

ولما طال عنها مَغِيبى ، أخذتْ تبعَثُ بالرسل تِباعاً يحملون كتبَها إلىَّ ، فكنتُ أقرأ بعضها بادئَ بدء ، وأنا أبتسم فى مرارة وألم ، ثم أصبحتُ لا أتسلَّمها إلَّا لأمزِّقَها فى بلادةٍ و إهمال .

وحان يوم أخلدتْ فيه « تهانى » إلى اليأس منى ، فَكَفَّتْ رسائلَها عنى ، وانقضتْ على ذلك أسابيعُ لا يطرأُ علىَّ من أخبارها شىء قلَّ أو كثر ، ولا تحدِّثُنى نفسى بأن أسأل عنها أحداً من قريب أو بعيد .

ورانَ على البيت طابع أَقْتَمُ عابسٌ يزيده مرضُ أرمَلة أخى من قتامة وعبوس ، فقد أقعدتْها العلة أشهراً تلوَ أشهر ، وهى تتداعَى وتضمحلّ ، دانيةً من القضاء المحتوم .

وتلقيتُ نعيَها ذات ليلة ، فملأتْ نفسى حسرةٌ مكبوتة ، وأحسَسْتُ وأنا أشيِّعها إلى مثواها الأخير أنى أشيِّع مَلَاذَ طمأنينتى ، وأفقِدُ يَنْبُوعاً من الحنوِّ كان لى عذباً سائغاً .

وخلتْ لى الدار ، فبقيتُ فيها فرداً أحسُّ بأنها قاعٌ صفصف يَصْفِر فيه الخراب . فإذا جَنَّ الليل ، وأوَيْتُ إلى مَخْدَعى ، دَهَمَتْنِى وساوسُ وأوهام ، ودهانى رُعْب يَشِيعُ فى نفسى ، ويُطيل أرَقِى ، فلا أتمالك إلا أن أدعوَ « أم خضير » إلى المَبِيت فى حجرتى ، تردُّ عنى غائلة الوحشة والانفراد .

ولبثتُ زمناً أحيا فى ذلك البيت العَبُوس ، وأعانى ما يبعثُه فى نفسى من ذكريات أليمة أحملُها على كاهلى هموماً ثِقَالاً .

ويوماً كنتُ أتردَّد فى مسالك الحديقة ، فشهدتُ « العيوطى » مقبِلا علىَّ ، وجعل يكرِّر على مسمعى أحاديثَه التى يعالج بها أن يسرِّىَ عنى . ثم أمسكَ عن الكلام لحظات ، وحدَّق فى وجهى ، وهو يقول : لماذا أنت مسترسل فى هذه الحياة الكئيبة ؟ . . . تعالَ الليلةَ نتفرجْ قليلا . . . لدىَّ شىء ممتع أريدُ أن أُطْرِفَكَ به !

... عاودتُ حياةَ اللهو والعبث ، بعد أن فطمتُ نفسى عنها طوال الشهور . وأصبحَ هذا « العيوطى » يتولَّى لى تمهيدَ السبيل ، بعد أن أمْسَى من رُوَّادِه العُتَاة !

واسترعَى انتباهى ما عَرا ذلك القَزَم العظيمَ من تغيّر ، فلقد تضلَّع بعد هُزَال ، وانبسطتْ جلدةُ وجهِه بعد أن كانت تَعِيث فيها الأخاديد

واعتلى بهامته فى مِشْيَتِه يزهو ويختال ، وارتدى ثيابَه منتقاةً ساطعةَ الألوان ، وحَلَّى أصابعَه بالخواتيم تَبْرُق فيها كبارُ الفصوص .

وطالما لمحتُه فى المَشْرَبِ القائم على رأسِ الشارع ، يجتذب أنْفاس « النارجيلة » فى تنفُّخ واعتداد .

ولبث « العيوطى » يرْسُم لى خُطَّةَ الجولات الليلية بضعة أشهر ، وأنا مسترسل فى هذا اللون من المتعة ، كأنى فى زورقٍ طليقٍ يدفَعُ به التَّيَّار ، دون أن يكونَ منى ما يعوقُ سيره ، أو يدير دفَّته يَمْنَةً أو يَسْرَة .

وفى إحدى تلك السهرات الطائمة ، وجدتُ «العيوطى» يجوسُ بى خلال الحيِّ الذى يقوم فيه منزل « الحاجة فاطمة » ، فخطر ببالى أن أقصِده ، وكنتُ قد انقطعتُ عن زيارته منذ أمد بعيد ، منذ انقطعتْ أسباب التواصُلِ بينى و بين صديقى « الزغبى » و « خيرى » ، فلم أعُدْ أعرف لهما من أثر .

وسَرعان مَا بلغتُ الدار ، فإذا هى هى : بناء عتيق يتكاثَفُ عليه البِلَى . فمثلتُ هنيهةً قُبالتَه أسرِّح فيــه الطرف ، وانبعثتْ فى خاطرى ذكرى اليومِ الذى عرفت فيه بابَه أولَ مرة . . . وتشابكتْ

الخواطر ، وتداعتْ الذكريات ، فإذا أنا أتصفَّح أحداثَ أيامِ الصبا في خَطَفات بارقة .

وأخذتُ أدقّ الباب بذلك الأسلوب المعهود لأهلِ تلك الدار ، فما هي إلا أن أطلّ الوجهُ المألوف من الطاق ، وما هي إلا أن صَرَّ البـاب يتزحزح ، وما هي إلا أن بدتْ ذُبالة الشمعة تجاهد أن تجنِّبَنا عقباتِ الطريق ، وما هي إلا أن بلغتْ أسماعَنا جَلَبةُ المعازف وأهازيجُ الغِناء ...

واحتوتْنا أخيراً تلك القاعةُ الفسيحةُ فيها أجناسٌ من خلق الله ، يتجلَّى في جانبٍ منها عرشُ « الحاجة فاطمة » وهي تَعْمُر أركانَه بادنةً متلفعةً بخِمارها الأبيض الناصع في مَهابة وجلال .

وما إن رأتْني قادماً عليها ، حتى ردَّدتْ كلماتِها الخالدة :

ما شاء الله . . . ما شاء الله !

ثم ما عتمتْ أن نادَتْ غلامَها قائلة :

انظرْ ماذا يطلبُ ضيفُنا « البك » .

وأطالتْ في وجهِي نظرَها تقول :

ماذا ألْهاكَ عنا ؟... طالتْ غيبتُك ، وحرَمْتَنا أنسَك !

وتنازعْنا الأحاديثَ بيننا ، على حينِ كانت « الخاجة فاطمة » تجتذب أنفاسَ « النارجيلة » فى نشوة واستمتاع .

و بعد قليل نهضتُ إلى سِرْبٍ من الغوانى أجالسُهن ، وأقارعهن كئوس الشراب ، وانبعثَ غيرَ بعيدٍ صوتٌ ما كدتُ أسمعُه حتى اهتزّتْ أوصالى ، فتطلعتْ أتعرّف : لِمَنِ الصوت ؟ فواجهتُ امرأةً تبارحُ إحدى الحُجَر ، فوجدتُنى لا أملك إلا أن أنهضَ صوبَها ، وقلبى يرْجُف ، وتبيَّنتْنى على الفور ، وأحسستُ بأنها توشِك أن تُصْعَق ، ولكنها ما لبثتْ أنْ تمالكتْ ، وأطلقتْ من فمها ضحكة عالية مفتعَلة ، وسمعتُها تقول فى صوتٍ أبحّ :

أنتَ هنا يا « سامى » ؟ . . .

وتدانيتُ من « تهانى » صامتاً تعتصرُ الحسرةُ قلبى ، ثم أخذتُ بيدها ألاطفها ، وراعَنِى ما لَحِقَها من تغيّر : عين غائرة زادها التكحُّل من بشاعة ، ووجه شاحب حارتْ فى أمره ضروب الطِّلاء والمساحيق ، وثوب شَفِيف يحاول بما فيه من برقشة رخيصة ملوّنة أن يَدُلَّ على ترَفٍ مكذوب . وزَكَمتْنِى هَبَّةٌ من رِيح الخمر كانت تنبعث منها فى حِدّة واشتداد .

وقادتنى « تهانى » إلى حجرتها ، فألفيتُها أمشاجا مُهَوَّشة من

ثياب وأثاث ومتاع ؛ مغمورةً بأخلاط من الروائح متنافرةٍ تبعث على الغَثَيان .

وقالتْ لى وهى تجتابْ ابتسامة كريهة :

مالك تنظر إلى الحجرة هذه النظرات ؟ ألا تروقك ؟

— جميلة !

فارتفعتْ ضحكتُها ، وهى تقول : أعترف لكَ بأنها أقلُّ جمالا من مَنْظَرتنا القديمة ... مَنْظَرتنا التى قَضَيْنا فيها أيامَنا الحلوة !

ثم رأيتُها تُقْبِل علىّ قائلة فى تحنُّن :

ألا تذكُر أيامَنا الخوالى ؟ ألا تذكُر ؟

— عهدٌ مَضَى يا « تهانى » !

— هذا شأنُ الرجال . . . لا يبقَى لهم عهد ، ولا يدومُ لهم وفاء !

— أ كان ممكناً أن تظلّ علاقتُنا لا ينقطعْ لها أَمد ؟

ورأيتُ وجهها يتقلّص ، و إذا هى تقول متشامخة مزهوّة :

لا تحسَبَنّ أنى أريدُك على شىء ... إن عِلْيَةَ القوم يخطُبون ودّى فَوْجاً بعد فوج . . .

واندفعتْ تؤكد هذا المعنَى بألوان من التعبير ، وأشارتْ إلى

ما حولها من حُطام المتاع ، وهى تقول :

انظر إلى هــذا كله . . . إنه هــدايا الأصدقاء والخلاّن !

وبينما هى فى حَمِيَّة وحماسة تُطْنِب وتُشيد ، وتُبْدِئ وتُعيد ، رأيتها تنفجر دَفْعَةً واحدة فى بكاء مَرير ، وارتمتْ على صدرى متشبثة بى ، فلاطفتُها مُشفقا ، ولكنى أحسستُ بوطأة جَسَدِها علىّ ، كأنها ثِقْلٌ من الهم لا قِبَلَ لى باحتماله ، فذهبتُ بها إلى المُتَّكَإ ، وأجلستُها بجوارى ، وهى فى بكائها تتمادَى ، وأنا لا أفتأ أُواسيها جَهْدِى .

وقامتْ إلى مِنضدة الزينــة ، تسوِّى من شعرها وتتعطّر ، ثم أفرغتْ كأساً من الخمر فى فمها ، وأترعتْ كأسا عادتْ بها إلىّ وهى تقول : ما أحلَى اللقاء بعد طول بِعاد . . . ما أجمــلَ أن ننتهزَ هــذه الفرصة لنستعيدَ حياة المتعة والبهجة والمِراح !

فأخذتُ الــكأس من يدها ، ووضعتُها جانبــا ، لم أقربْ منها جُرْعة . ورأيتُ « تهانى » تَهْبِطُ علىّ تقبّلنى قبلةً شعرتْ كأنها لَدْغَة ثعبان . فزحزحتُها عنى فى رِفق ، وقلت وأنا أنتزع الــكلمات انتزاعا :

أشكر لك لطفَكِ يا « تهانى » . . .

— ألستَ تحبُّنِي يا « سامى » ؟

— وهل فى ذلك شكّ ؟

ونهضتُ من ساعتى ، وأنا أتابعُ قولى :

سأزورك فى فرصة قريبة ... قريبة جدًّا .

وهممتُ بالخروج من الباب ، ولكنى وجدتُنى أقفُ لحظةً أُخْرِجُ فيها من جيبى ما تيسَّر من المال ، وما لبثتُ أن تركتُه أمامَها على مِنضدة الزينة ، ومَرَقتُ من الحجرة ماضياً إلى الطريق ، عجلانَ الخطا ، كأنى أفرُّ من الجحيم ...

ولما كنتُ على رأس الشارع ، ألقيتُ على بيتِ « الحاجة فاطمة » نظرةً كانت وَدَاعاً إلى الأبَد !

٢٢

دارت بى حياةُ اللهو فى معمعانها بين خمر ونساء ، وانقلبَ يومى رأساً على عَقِب ، فأصبح نهارى نوما وخمولا ، وأمسَى ليلِى سهرا وعربدة !

وأدركتْنى ذَهلة عن أمرى ، فكنتُ فى ذلك التيَّار الجارف ، لا أُبالِى إلى أىِّ مصير أنا مَسُوق .

ويوماً دخل عليَّ « العيوطى » وأنا فى مَخْدَعى قُبَيْلَ الظهر ، وبيده بطاقة كبيرة مزخرَفة ، وهو يقول وفمه تملؤه ابتسامة ضخمة :

هذه بُشْرَى خير يا سيدى . . . هاكَ دعوةَ فرحٍ جاءتْ بها البريدُ الساعةَ !

فتناولتُ البطاقة وأنا أقلّبها بين يدىّ ، ثم فضضتُ غلافَها ، وجعلتُ أقرأ ، ثم رفعتُ صوتى بجملة الختام ، مواجهاً « العيوطى » قائلا : والعاقبة عندكم فى المسرات .

فصاح قائلا : ومتى نَحْظَى بذلك الفرح ؟

— أتريد أن نرحَل إلى الصعيد من أجل عُرْس ؟

— حفلات الأفراح جديرة أن نرحَلَ من أجلها إلى آخر الدنيا . . .

— إذن فأعِدَّ نفسَك للسفر بعدَ غدٍ .

ونهضتُ من فراشى ، والبطاقة بين يدى ، أعيدُ قراءتها ، يعلو فمى ابتسام .

ثم دنوتُ من « العيوطى » أضرب كتفَه قائلا :

أتعلمُ مَن الداعى ؟

— لا يعلم الغيبَ إلا الله !

— أحدُ أقرانى فى المدرسة . . . انقطعتْ بيننا الصلةُ منذ سنين طِوال !

ثم أخذتُ أَذْرَعُ الحجرةَ ، وأنا أهمهم : « خيرى » . . . « خيرى » . . . تُرَى ماذا أخطرَ اسمى ببالِه بعد هذه الغيبة الممدودة ؟ ها هو ذا يبنى بيتاً وينشئ أسرة . من ؟ ذلك الصبيُّ الذى لم يكن يُحْسِنُ إلا قَرْضَ أظفاره . . . لِلّهِ فى خَلْقِهِ شئون !

وأبرقتُ إلى « خيرى » أُعْلمه بموعد قدومى عليه ، وأقلَّنى القطار ، أنا و « العيوطى » فى مَدخَل الليل ، فبلغْنا محطةَ الوصول قُبَيْلَ السَّحَر ، وكان فى استقبالنا جَمْع من الأعوان والأتباع ، يحملون المصابيح ، ويغمروننا بالحفاوة متهللين متصايحين .

واحتوتْنا مركَبة سارتْ بنا تحُفُّ بها المطايا عليها المشاعلُ تَفْسَحُ لنا الطريق .

وأخذ من نفسى ذلك الرَّكْبُ الفخم ، فملتُ على « العيوطى » منتشيا أقول له :

ما أشبهَ ركبَنا هذا بموكب العُرْس . لكَ أن تحْسُبَ نفسَك عرُوسا !

وانطلقتْ المركبةُ تَشُقُّ غَبَشَ الليل ، والطبيعةُ من حولى بالغةُ الهدوء ، وأنسام السَّحَر الرطبة تصافح وجهى فتبعث فِيَّ انتعاشاً وبهجة ،

وتثير فى نفسى الشعورَ بأنى قد انتقلتُ إلى دنيا جديدة لا عهدَ لى بها من قبل .

وانسرحَ بى الفكر فى آفاق رِحاب من الأخيلة والخواطر ، وعلى الرغم من بُعْدِ الشُّقَّة ، وعناء الطريق ، فإنى لم أستشعرْ شيئاً من جهد أو مَلالة . وكنتُ أتبيَّن نور الفجر ، وهو يُولَدُ خيطا أبيض ، ثم لا يلبث أن ينتشر فى عُرْضِ الأفق لمَّاحا يحمل إلى الكون رسالةَ اليومِ الجديد . . .

وأقبَلْنا على الدار ، تتجلى بما عليها من أضواء ساطعة، كأنما تَمُدُّ فى عمر الليل ، وتستهزئ بِمَطْلَعِ الفجر !

وما كدتُ أبرح المركبة حتى وجدتُنى بين ذراعين تلتفَّان علىّ ، والقُبُلات تتناثر على وجهى يَمْنَـة ويَسْرة ، وكلماتُ الترحيب تتوالَى وتتكرَّر ، وإذا أنا آخُذُ بيد « خيرى » أهزّها فى تشوق وتودد ، قائلا :

مبارَكٌ لك الزواج . ذلك هو اليومُ الذى كنا نتمنَّاه ... أن نراكَ فى فرحك ، وأن نسعدَ بك ، وأن . . .

فقاطعنى « خيرى » يومئ إلى شخصٍ بجانبه ، وهو يقول :

دَعْ عنك هذا الكلام ، وانظر . . . أتعرفُ مَنْ ذاكَ ؟

فنظرتُ أتعرّفُه ، فألفيتُنى أمام رجل عَرِيض المنكبين ، مجنّح الشاربين ، يرتدى الجلبابَ الصُّوفىَّ السابغ ، فوقفتُ أتفرّسُ فيه لحظة ، وقلت : أممكنٌ هذا ؟

فما لبثَ الرجل أن صاحَ بى :

أَنَسِيتَ « الزغبى » يا وَلَدُ يا « سامى » ؟

وما هى إلا أن وجدتُنى فى زوبعة من ترحيبه بى ، وإقبالِه علىَّ ، واحتضانه إياى ، وكأنى عُود من أعواد القصب دارتْ عليهِ مِعْصَرَة عاتيـة !

وسِرْتُ بين « الزغبى » و « خيرى » ندخُل الدار ، والنـاسُ حوالينا زَرافات ، فرأيت « العيوطى » تنشقّ عنه الأرض أمامنا يَفْسَح الطريق ، ويقول عالى الصوت ، متطاولا بقامته : ما أحلَى اجتماعَ الشمل بين الأحباب ، وَلْتَحْيَ الأفراح والليالى الملاح !

واحتوتنا مَنْظَرة الضيوف ، وجلستُ مع صديقَىْ صِباىَ نتطارحُ الأحاديث ونتذاكرُ تصاريفَ الزمن ، فعلمتُ بأن « خيرى » الآنَ قد تَموّلَ وأَثْرَى ، وصارتْ له ضَيْعةٌ يحسن تدبيرها وتثميرها . فأما « الزغبى » فأمسَى من ملوك التجارة فى الحبوب من قمح وعَدَس وفُول ، وقد تزوج وأعقبَ . وكِلَا الصدِيقيْن يقيم فى الصعيد ، وكلاهما على مَقْرَبة

من صاحبه ، وهما يتبادلان المؤازرةَ والعَوْن ، وينعَمان بحياة هادئة طيبة في طريق مستقيم . . .

وفجأةً رأيتُ « الزغبي » يميل عليَّ قائلا :

وأنتَ يا « سامي » . . . ماذا فعل اللهُ بك ؟

خفضتُ من بصري ، وغَصِصْتُ بريقي ، وعَيِيتُ عن الجواب ، فلكزني بيده مداعباً يقول :

ماذا وراءك ؟ هَلَّا أخبرتَنا بشأنك ؟

فرفعتُ بصري إليه ساهماً أهمهم : حياتي على ما هي عليه !

وأنقذني مما أنا فيه من حَرَج قدومُ أحدِ أعوان البيت ، وهو يحمل طفلا ما زال في عينيه خَدَر النوم ، والطفل يتصايح طالباً أباه ، فنهض « الزغبي » يتلقاه ، ويعود به مطيِّباً خاطره ، مربِّتاً كَتِفَه ، وما هي إلا أن دفع به إليَّ وهو يقول له : اذهبْ فقبلْ يَدَ عمك يا ولد . .

وانبرى « الزغبي » يُفِيضُ في الحديث عن طفله وما يبديه من نشاط ، وما يأتي به من مشاغبات ، فقلت له :

الولد سِرُّ أبيه . . . ومن يشابه أَبَهُ فما ظلم !

وضَجَجنا بالضحك جميعاً .

ولبثَ الطفل بين يدي ، أحدِّق فيه ، وأنا أستمع إلى حديث أبيه .

وسَنَح ببالى خاطر مفاجئ ، فقلتُ أناجى نفسى :

ماذا كان يبلغ طفلى الآنَ من العمر ، لو قُدِّرَ أن يكون لى طفل ؟

ونَجَمَتْ على الفور فى خاطرى صورةُ « فتحية » ووجهها الوديع تكسوه مَسْحةُ اليأس ، وعينُها تتحيَّر فيها الدموع !

فعاجلتْنى انتفاضة تفطَّر لها قلبى من تحسُّر والتياع ، وظَلِلْتُ غيرَ قليل أعانى الكمد ، ولكنى ما زلتُ بنفسى حتى تمالكتُ ، خَشْيَةَ أن أُفسدَ على صاحبىّ ما يستمرئانه من مُتعة وصفاء .

وكان أكبرَ ما جَرىَ فى تلك الزيارة مَوْكِبُ الزِّفافَ ، فقد أُعِدَّتْ فى العشيَّة مركبة زُيِّنَتْ بالأزاهر ، وأحيطت بالرايات والشرائط أشكالا وألوانًا ، وجلس فيها العروس ، وأنا عن اليمين و « الزغبى » عن الشمال ، وسارت بنا تَطُوفُ البلدة على أضواء المشاعل والشموع ، فى جَوْقَةٍ من المنشدين وحَمَلَة المعازف ، من حولهم حُشُود من الأهل والصحب ، وجموع من سكان البلدة يتراقصون ويَطْرَبُون .

وفَرَغْنا من الطَّواف فى منتصَفِ الليل ، فما إن حَلَلْنا الدارَ حتى استقبلتْنا عواصف ثائرة من الأغاريد والأهازيج تنطاق بها حناجرُ النساء .

ولما أَزِفَ موعدُ التقاءِ العروسين ، ألفيتُ « خيرى » مهتاجاً يمسح ما تصبَّب من عرقه ، وانحَنى على أظفاره يَقْرِضُها فى تتابُع ...

يومان اثنان قضيتهما فى ضِيافةِ ذلك العُرْس، نَعِمْتُ فيهما بالكثير من بواعث اللطف والإيناس ، ولَقِيتُ فيهما صنوفاً من الحفاوات والمجاملات ، وتعددتْ فيهما أمام عينى ضروبٌ طريفة من التسلية والابتهاج، ولكننى أعترف بأن مُتْعَتى فى هذين اليومين لم تَخْلُصْ من الشوائب ، فقد كانت تعتادُنى أطياف من كآبة واغتمام ، فأجدُنى أَهِيمُ فى أودية من الأفكار تُشَرِّد بى كل مُشَرَّد ...

وكان قفولى من الصعيد فى قِطارِ الصباح ، فقضيتُ ساعاتِ السفر الطوال منهوكَ الجسد ، خامدَ الأوصال ، أغفو بين فترة وأخرى ، ولطالما خُيِّلَ إلىَّ أننى أسمع صوت « الزغبى » يسائلنى :

ماذا فعل الله بك ؟ هَلاَّ أخبرتَنا بشأنك ؟ !

ثم يتراءى لى شَبَحِ طفله ، وهو بين يدىَّ أطيل فيه النظر ، وأنا أحدِّث نفسى :

ماذا كان يبلغُ طفلى الآنَ من العمر ، لو قُدِّر أن يكون لى طفل ؟ !

وفَصَلْتُ عن القطار آيباً إلى دارى ، ووطأةُ الكآبة والإغتمام تتثاقلُ علىّ ، وتَعْصِف بى .

وصُبْحاً نزلتُ إلى الحديقة أروّح فيها عن نفسى ، وساقتْنى خطاى إلى أقصاها ، فإذا أنا أرى الجبّ . . . ووقفتُ حِيَالَه أحدّق فيه ، ثم خطوتُ أدخله ، فاعترضتْنى أطباقُ الظلمة ، وثارت علىّ رِيح عفِنة ولكنى على الرغم من ذلك كله أَقْدَمْتُ ، حتى بلغتُ الفجوة ، ومكثتُ فوقَها أُنْعِمُ النظرَ على ضوء عُودٍ من الثِّقاب أشعلته ، ثم رجعتُ من فورى أعجَب من أمرى : كيف قضيتُ دهراً أتهيّبُ ذلك المكانَ المهجورَ الذى ليس فيه ما يوجب رَهَباً ولا خشية ؟

وذكرتُ موقِفَ « فتحية » من هذا الجُبّ منذ أعوام ، إذ لم تخشَ منه شيئاً ، وإذ أقدمتْ تقتحمه وتكشِف ما فيه ، فلما ذكرتُ ذلك هَزّتْنى إلى « فتحية » عاطفة من تشوُّق وحنين !

وأبَى شَبَح « فتحية » إلا أن يلازمَنى يومى كله ، يتنقّل معى حيثما حللتُ ... شَبَحُها فى ذلك المظهر الوديع الذى يتوضّح فيه الحزن والقنوط !

واعتملتْ فى نفسى مشاعر وإحساسات ظلت تحتدّ وتشتدّ ، فناديتُ « العيوطى » أحدّثه ، وانتهينا إلى أمر مقرّر ، رسمنا له خُطّته، وأعددنا عُدّته ...

٢٣

وبكْرَةَ غادرتُ الدارَ ، يَقفُو أثَرِى « العيوطى » إلى « المحطة » .

لقد آليتُ على نفسى أن ألتقى « فتحية » حيث تكون ، مهما يصادفنى من عراقيل .

وبدأتُ البحثَ والتحرّى ذاهباً إلى الضَّيْعة التى انتقلتْ إليها « فتحية » أوّلا عند زوجِها شيخِ الخفر . . .

ومن ثَمَّةَ استقيتُ مختلِفَ المعلومات والأنباء ، وواصلتُ السفر أسأل وأتقصّى ، حتى بلغتُ القريةَ التى انتهى إليها مَصيرُ « فتحية » آخرَ الأمر .

ولما دخلتُ القريةَ استهديتُ إلى بيتِ شيخ الخفر ، وحثثتُ إليه الخطا ، وقلبى سريعُ الخفوق . فلما قاربتُ البيت ، لمحتُ على مَصْطبَتِهِ امرأةً مقوّسَةَ الظهر ، باديةَ الشَّيْبِ ، مستغرقةً فى تفكير .

فدنوتُ منها أحدّق فيها وأتفحصها ، وبغتةً صحتُ :

السيدة « هاجر » . . .

ورفعتْ المرأةُ رأسَها ، وقد اختلج جُسْمَانُها اختلاجةَ تطلُّع ، وهمهمتْ تقول : من ؟ !

فقلت : ألا تعرفيننى ؟ أنا « سامى » . . .

وأقبلتُ عليها أصافحها فى تحنُّن وتأثُّر ، وأنا أقول :

منذُ الصباح وأنا أبحث . . . أين هى ؟ أين « فتحية » ؟

فما أسرع أن أجهشَتْ بالبكاء ، وأخذتْ بيدى تُجْلِسُنى بجوارها وتقصُّ علىَّ ، مختنقةَ الصوت ، شَرِقةً بالدمع ، ما جرَى من أحداث وما كان من مصاير . . .

وشددتُ على يدِها ، وقلتُ لها راجفَ النبرات : أماتَتْ ؟ أحقًا ؟

وتخاذلتْ أوصالى ، وغَشِيَنا صَمْتٌ برهة .

ثم أنْبَهَنى صوت رفيع من جَوْفِ الدار ، ينادى :

جَدَّتى ... جَدَّتى !

فسموتُ برأسى أتبيَّن ، وقد ثارتْ نفسى ، فرأيتُ طفلا يَدْرُج من الباب ، قاصداً السيدةَ « هاجر » وما إن وقع بصرُه علىَّ حتى رمقنى فى خوف وحَذَر ، وأسرع إلى حِضْن جدَّته ، يحتمِى به .

وسمعتُ السيدة « هاجر » تقول :

هـذا طفلها . . . انظرْ إليه يا « سامى » . . . طالما كانتْ « فتحيةُ » تُحَدثنى أنه صورةٌ منك !

فافتقدتْ عيناى ، أتفرّس فى وجه الطفل ، و بسطتُ له ذراعى ، فانكمش عنى ، فلاطفتْهُ السيدة « هاجر » وقالت له :

هذا الأفندى يحبك ، فلا تخَفْ منه يا « فتحى » . . . سيُحضر لك لَعَباً وحَلْوَى !

فالتفتَ الطفلُ ينظُر إلىَّ ، مستريباً بى ، وفى عينيه استطلاع وفضول . فقلت له : لقد أحضرتُ لكَ أشياء لطيفة . . . انظر . . .

وأخرجتُ له ساعتى أُرِيه إياها ، فانجذبَ نحوى واهنَ الخطا ، ومدَّ يده إلى الساعة يقلبها و يتفحّصها ، فأعنْتُه على أن يضعَها على أذنِه ليسمعَ دقّاتها ، فأشرقتْ أسارِيرُه ، وفرقعتْ ضحكاتُه .

وجعلتُ أتأمّل قَسِمَاتِ وجهه ، فكأنى كنتُ أقرأ فيها سطوراً من ذِكْرَيَاتٍ حافلة .

وكنتُ كلما حدَّقت فى عينيه الصغيرتين عَرَتْنِى نَشْوة ، فأخذتُه بين ذراعىَّ ، وطبعتُ على خدِّه قبلة حانية ، ثم وسَّدْتُ رأسَه صدرى ، وجعلتُ أداعبُ شعره .

ومرتْ بى هُنيهة ، وأنا هائم فى أحلام ، و بدأتُ أستشعرُ طُمَأْنِينَةً وسكينة ، و إذا الدنيا من حولى كأنما قد انجابَ عنها قتَامُها ، وأخذتْ تُشْرِق وتبتسم .

لكنى كنتُ من حياتى فى مَتاهةٍ أضرب فى وَعْثائها على غيرِ هُدًى ، وإذا أنا بعدَ لأْيٍ يتوضَّح لى طريقُ الخلاص . . .

وتراءى لى أنى أسيرُ فى ذلك الطريق ، آخذاً بيد ولدى ، مستقيمَ الخَطْوِ ، يحدُونى أملٌ بَسَّام ، ويشيعُ فى نفسى أمْنٌ وسلام !

شيخ الزاوية

على الشاطئ الأيمنِ من تُرْعة « الخليلية » قريباً من بلدة « المحاريق » ، تقوم زاوية للصلاة ، هيِّنةُ المظهرَ ، صغيرة المساحة ، ولكنها على الرغم من ذلك لا تخلو من القُصّادِ فى الصلوات الخمس كل يوم ، ولا سيما صلاةُ الجمعة من كل أسبوع ، إذ يتوافد الناس عليها زَرَافاتٍ من كل فَجّ ، حتى تضيقَ بهم رُقْعتها ، فلا تملك جموعهم إلا أن يتخذوا من حولها مُصَلّى فى الطريق . . .

وإن زاوية « الخليلية » لتزداد قُصّاداً على مرّ الأيام ، طوعا لما يتمتع به إمامها « الشيخ نعيم » من شهرة واسعة ، وصيتٍ بعيد . فلقد تسامع الناس فى أحشاء القرى المجاورة ، والبلاد القاصية ، بهذا الإمام الجليل ، وتناقلوا الحديث فى رَوْعةِ مواعظه ، وقوة صلاحه ، وأجمَعُوا على أن دعوته ليس بينها و بين السماء حجاب . فكانوا حِراصاً على أن يغتنموا بركةَ الِائتمام به ، والصلاة معه ، وأن يتزوّدوا مما يلقيه عليهم

من خُطَبه الرنّانة زاداً طيباً للحياتين : العاجلة والآجلة ...

وكان بعضُ من تحتويهم الزاوية فى صلاة الجمعة ، يَقْدَمون إليها فى الضحوة الباكرة ، متجشّمين مشقة الرّحلة من أقصى الريف ، متنافسين فى اتخاذ مجالسهم عن كَثَب من المِنْبَر ، لا يريدون بذلك الصلاة فحسب ، ولا تستهويهم خطبةُ الجمعة وحدَها ، وإنما هم مَرْضَى تعاصَتْ عليهم السبل ، ولم تُجْدِ فى شفائهم الحِيَل ، فعَجلوا إلى شيخ الزاوية يرتقبون منزلَه من المنبر عقبَ الخطبة ، ليأخُذوا بحاشية جُبَّته ، ويمسَحُوا بها الوجوه ، فإذا قُضِيَتْ الصلاةُ نهضوا إليه يلثَمون يده ، ويلتمسون دعاءه أن يفرّجَ الله عنهم الكَرْب ، ويزيل السقام . . . وإن دعاء هذا الوليّ الصالح فى هذه الساعةِ المباركة لَقَمِينٌ أن يظفَر بالاستجابة والقبول .

كان « الشيخ نعيم » رجلاً مَهيبَ الطلعة ، تتجلّى على أساريره علائم الإيمان العميق ، وكان بائنَ الطول ، ضامرَ الجَسَد ، حَسَنَ الملامح ، تَزِينهُ لحية مهذّبة وَخَطَها الشَّيب ، فكساها صِبْغة الوقار . . . وهو ذو عينين نجلاوين ينبعث منهما تَيَّار قوِىّ يَبْهَر الأبصار ، ويَنْفُذُ إلى القلوب .

ولقد وهب الرجل حياتَه للتعبُّد ، وقصر عمله على إبلاغ رسالة

الدِّين ، وهداية الخلق إلى الطريق المستقيم . . . فإذا تكلم تناثرت على فمه آيات القرآن وأحاديث الرسول وأمثال الصالحين ، وإذا خطا فى الطريق وجدته مطأطئاً فوق سُبْحَته يغمغم بأذكاره أو يناجى ربه ، وإذا اعتلى منبره يوم الجمعة تدفق لسانه بفصيح الكلام، وتدفع صوته قوىّ الجرْس ، فلا يلبث بيانه أن يلمس شغاف الأفئدة ، يرف عليها حيناً برداً وسلاماً ، وينصبّ عليها تارة ناراً موقدةً ، وفى يده سيفه الخشبىّ يلوّح به ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، فتهتز الزاوية بمن حوت ، كأنما أصابها زلزال ، وما هى إلا أن ترى الناس شاخصةً أبصارهم ، خاشعةً أجسادهم ، كأنهم قد مسّهم سِحْر . . .

ولم يكن الرجل يعرف فى دنياه مَثَابة غير البيت والزاوية . . . فهو إمّا فى بيته يصيبُ طعامه ومنامه ، وإما فى زاويته قائماً يصلّى أو جالسا يتحلّقُ حوله نفر يطلبون عنده الموعظة الحسنة ، أو يرفعون إليه ظُلامةَ بعضهم من بعض ، أو يلتمسون منه حكم الشرع فيما يَعْرِض لهم من شئون العيش وأحداثِ الحياة . . .

وإن أهلَ بلدة « المحاريق » ليذكرون « للشيخ نعيم » أنه منذ فُتُوّة سِنّه ، دَمِثُ الشمائل ، طيّبُ المعاشرة ، تتوضّح فيه سكينة النفس ولِين الكلام . . . وأنه أسبقُ الناس إلى صلاة ، وأحرَصُهم

على أداء فرض ونافلة ، وأكثرهم وَلَعاً بالتفقه فى الشريعة ، والتمكُّن فى آداب الدين . . . فلا غَرْوَ أن يقيموه إماماً للزاوية ، ولم يستكمل عامَه الخامسَ والعشرين،وها هو ذا قد مضى له أكثرُ من عشرين عاماً فى مَنْصِبه الكريم ، يزداد على الأيام من وَرَعٍ وتقوى ، ويزدادُ له الناسُ من حبٍّ وإكبار . . .

و « الشيخ نعيم » يؤمن بأنه من السلالة النبوية المطَهَّرة، وأن الله قد اختاره هادياً ومرشداً لهذا البلد وما حولَه ، وكثيراً ما رأى نفسه فى المنام ، وقد حَفَّت به ملائكة أبرار ، ورفرفت فوقَ رأسه رايات خُضْر ، وطالما ترامَى إلى أذنه فى جوف الليل صوتُ الهاتف يُهيبُ به أن ينبعثَ لهداية الخَلْق ، وأن يكون فى عَوْنِ الناس ، فإذا هو ينتفِضُ اهتياجاً ، وإذا هو ينهَض فيتوضأ ، ولا يفتأ يتهجَّد . . . وكان لذلك يستجيب ناشطاً حين يُدْعَى للسَّهَرِ بجانب مريض يقرأ على رأسه التعاويذ ، ولا يقصِّر فى تيسير حاجات الفقراء والمساكين ما استطاع . . . فقد يَنْزِل عن طعامه لجائع يقصِده ، وقد تراه فى الحقول يُعين أحدَ الفلاحين فى الحرث والرىّ ، حِسْبَةً لوجه الله .

وربما بات « الشيخ نعيم » طاوىَ البطن ، لا يجد ما يتبلَّغ به ، وهو على ذلك منشرح الصدر ، يغمُره الرضا . وربما أدركه الشتاء وهو

لا يملك من الغطاء إلا جُبّته البالية ، فيشعر فى قرارة نفسه بدفء عظيم . . .

وكذلك عاش الرجل فى الحياة ، حالماً فى يقظته وفى نومه ، تتراءى له أخيلة رائعة يتمثل بها مَقامَه عند ربه ، ونعيمَه فى جنة الخلد ، جزاء لمهمته الجليلة فى هذه الدنيا . . . تلك المهمة التى يختص الله بها أولياءه الأطهار .

فأما أُسْرَةُ الرجل التى تعمُر بيته ، وإن شئتَ قلتَ : كُوخَه ، فلم تكن إلا زوجةً بَنَى بها منذ فاتحةِ شبابه ، وهى تَكْبُره بسنوات قلائل ، وقد تزوجتْ قبلَه ، ثم تُوُفِّيَ عنها زوجُها ، فضمَّها الشيخ إليه رحمةً بها ، وظل معها فى عيشةٍ هادئة راضية ، خلالَ تلك السنين الطوال .

وبينما « الشيخ نعيم » فى مُنْصَرَفه من الزاوية بعد صلاة الجمعة ، وهو مائلٌ على سُبْحَته يناجيها ، إذ انتهى إلى سمعه صوت متخشع يناديه ، فالتفت يتبيّنُ الأمر ، فألفى رجلا يَتْبَعُه فى خُطا متعثرة ، فعطف عليه الشيخ يسأله : مَن أنتَ ؟

— أنا « عبد التواب » .

— مِنْ أىِّ البلاد ؟

— من الكَفْر المجاور . . .

— ما الخَبَر ؟

فأقبل عليه الرجلُ آخذاً بِكُمِّ جبته يقبله ويُنَدِّيه بدمعه ، فقال له الشيخ : هَوِّن عليك يا بنى ، وقُصَّ علىَّ ما تشكو . . .

فانتبذَ به الرجل ناحيــة ، وطَفِقَ يخبره بأنه أَوْقَعَ على زوجه الطَّلقَاتِ الثلاثَ ، ولكنه يلتمسُ إلى ردّها سبيلا .

فأخذ الشيخ يسائله ، ليستجلىَ أمرَ هـذا الطلاق ، فلما علم الأمرَ على وجهه ، قال له : لا سبيل إلى معاشرتِكَ إيَّاها إلا أن يتزوجَها رجلٌ غيرك . . . فإن طلَّقَها كانتْ لك من بعده حلالا .

فسأله الرجلُ فى تحسُّر : أَلاَ من سبيلٍ غيرِ تلك السبيل ؟

فقال الشيخ : هذا شَرْعُ اللهِ يا بُنَىَّ !

فنَكَّسَ الرجلُ رأسه لحظةً وقد استَيْأَسَ ، ثم تهيَّأَ للانصراف ، فأخذ الشيخُ طريقه ، واستأنفَ الإقبالَ على سُبْحَتِه ، يُنَقِّلُها بين أصابعه . . .

وفى أصيل الغد ، كان « الشيخ نعيم » يغادرُ الزاوية ، وقد فرَغَ

من صلاة العصر ، فرأى الرجل الذى تَبِعَه أمسِ قد عاد إليـه ، وما لبث أن خلا به فى ناحية ، فجعل الرجل يَفْرُكُ يديه ، وقد مال برأسه ، ثم تحدَّث إلى الشيخ فى شأن زوجته المطلَّقة ، وهو يقول : لقد حَتَمْتَ ياسيدَنا الشيخ أن تتزوجَ المرأة رجلاً غيرى ، حتى تَحِلَّ لى من بعده .

فقال الشيخ : أَجَلْ يا بُنَىَّ . . . ما من ذلك بُدٌّ !

فازداد الرجل مَيْلًا برأسه ، وقال مجمجماً كأنه يتحدَّث إلى نفسه :

هل يقبَلُ سـيدُنا الشيخ أن يكونَ ذلك الزوج . . . خدمةً لوجهِ الله ؟

وعَقَدَتْ البَغْتَةُ لسانَ الشيخ ، فلم يُحِرْ جواباً ، وانحنَى على سُبْحَتِه يوارى بها حيرته واضطرابه . . . فاستأنف الرجلُ قولَه مفصِحاً عن مَطْلَبِه ، مُلْحِفاً فى الرجاء والاِستعطاف . . . وما زال فى إلحافِه ، حتى قال الشيخ : أَمْهِلْنى يوماً . . . سأستخير اللهَ يا « عبد التواب » . فإن كَشَفَتْ الاِستخارة عن خيرٍ أجبتُكَ إلى مطلبك ، وإلا فَمُحَالٌ أن يكونَ ما تريد . . . جِئْنِى غداً يا بُنَىَّ ، والله ولىّ التوفيق !

وما إن انتهَى الشيخُ من جوابه ، حتى هَمَّ بالِانصراف ، فاستوقفه الرجل لحظةً ، ومضى عنه ، ثم رجع إليه ومعه امرأة فى عَصْرِ الشباب ، طيبةُ القَسِمات ، بيضاء نَضْرَة . . . فتقدمتْ من الشيخ فى خَجَل

وخَفَر، فقال لها الرجل: قَبِّلِي يَدَ الشيخ.

ثم قال للشيخ: هاهى ذى زوجتى المُطَلَّقة...

وما كادت المرأةُ تنحنِي على يدِ الشيخ، حتى جذبَ يدَه، وفرطتْ منه نظرةٌ إليها، فلاقتْ نظرتَها، فغضَّ الشيخ من بصره، وقال للرجل: امْضِ بزوجتك.

فقبَّل «عبدُ التواب» يَدَ الشيخ، داعياً له أن يُجْزِلَ اللهُ ثوابَه.

وأخذ الشيخُ سَمْتَه إلى داره، وئيدَ الخطا، مُسْبَلَ العينين، مَحْنِيَّ الهامة، غارقاً فى تسبيحاتٍ عميقة.

وقضى الشيخُ ليلة هانئة زخرتْ بالبهيج من الأحلام، إذ تراءتْ له فى رياضِ الجنة حُورٌ عين، وبينهنَّ من تُشْبِه فى ملامحها تلك الشابةَ التى أقبلتْ عليه فى عصرِ يومه الفائتِ على استحياء!

وصحا الشيخُ من نومه، قُبَيْلَ الفجر، نشيطاً مجبوراً. فلمَّا أدَّى فريضةَ الصبح، استخارَ اللهَ فى شأن ذلك الزواج... فلاح له من الدلائل ما جعله يطمئنُّ إلى القيامِ بهذه المهمة دون حَرَجٍ أو تَثْرِيب.

وجاءه «عَبْدُ التواب» فى موعِده، يستجلى نَبأَ الاستخارة، فأخبره الشيخُ بقبوله، فاغتبط الرجلُ بذلك، وانطلق إلى دار مطلَّقته يدعوها إلى إجراء عقدِ الزواجِ بشيخ الزاوية...

وما أَسْرَعَ أن انتهتْ مهمةُ الزواج والطلاق على خيرِ وجه ، ولكن زوجة « عبد التواب » خَلَّفَتْ بعد رحيلها أثراً جميلاً في نفس الشيخ الإمام ، فلقد شَعَر بعاطفة تستيقظُ في قَرَارَةِ نفسه ، عاطفةٍ خفيةٍ غامضة ، ولكنها تَسْرِي في أوصاله ، فلا يملك معها قَرَاراً ...

وكان طيفُ تلك المرأة يَطْرُقُ الشيخَ في مَنَامِه ، فيتشكَّل له في صورة حُورِيَّةٍ ناصعةِ البياض تغازله وتضاحكه ، فيقطعُ ليله طَرِباً جَذْلَانَ ، ولكنه إذ يستيقظ يعاجله انقباض ويأس ، ويقضي وقته مهموماً مكروبَ الفؤاد ...

وإنه ليسائل نفسه : ما خَطْبُ هذه الأحلام ؟

أتراها رَمْزاً لحكمة خَفِيَتْ عليه ؟

أم تراها نزغةً من نزغات الشيطان ؟

ولم يكن يُسْعِفه في حيرته وقلقه إلا صوتُ الهاتف يقول له في غفواته التي تواتيه أثناء التدبر :

طِبْ نفساً يا « نعيم » ... فليس عليك من الشيطان سُلْطَان ...
سِرْ في طريقك الذي رسَمْتَه لنفسك ، واعملِ الخير ما استطعتَ إليه سبيلا !

فيتشهَّد الشيخ تشهُّدَ الحمدِ لله ، وما أسرع أن يستنيرَ وجهه

بِشْراً وارتياحاً ، ثم يقضى بقيةَ يومه على أحسنِ حال .

وتناقلَ الناسُ فى بلدة « المحاريق » وما جاورها من البلدان أن الشيخَ الإمام تزوجَ امرأةَ « عبد التواب » لِتَحِلَّ لزوجِها من بعده ... فتوارد عليه أولئك الذين طلّقوا زوجاتهم ثلاثا ، ثم نَدِموا على ما فعلوا ... تواردوا عليه يبتغونَ عنده مثلَ ما ابتغى ذلك الرجل ، تفريجاً لتلك الضِّيقَة ، وَوَصْلًا لحبل المعاشرة ، وهم مطمئنون إلى قيام الشيخ بهذا الأمر ، طَيِّبَةً أنفسُهُمْ به . فكان الشيخُ لا يُخَيِّبُ لهم هذا السُّؤل ، ولا يَرُدّ تلك الطِّلْبَة ، إذ كان قد رَسَخَ فى اعتقاده أنه يفعل ذلك ابتغاء مَرْضاةِ الله ، وتيسيراً على عباده ... وكيف يَزْهَد فى صنيعٍ يلتئم به شَمْلُ الأُسَر ، وتتوافرُ بين الأزواج أسبابُ الوِفاق ؟ !

وترادفتْ الأشهر على شيخ الزاوية ، وهو لا يَفرُغ من زَوْجِيَّة حتى تستقبلَه زَوْجِيَّة أخرى ... فانقلبتْ لياليه أعراساً متوالية ، واصطبغتْ نفسُه بِصِبغة جديدة لم يكنْ له بها عَهْد .

لقد أصبح يَمْشِى فى الطريق معتدلَ القامة ، مرفوعَ الهامة ، يختلسُ النَّظَر إلى المِلَاح .

ولقد عُنِىَ بلحيته أيَّما عناية ، فشذَّبها أحسنَ تشذيب ، وعالج مَشِيبَهَا بالخِضَاب أجملَ علاج ...

ولقد عَمَد إلى عمامته ، فبناها مهندَمَة الوضع ، مستويةَ الطَّيَّات ، وأَلِفَ أن يتعطَّر عملًا بالسُّنَّة ، وخَلَطَ حديثَه بالنُّكات اللطيفة ، والضحكات الخفيفة ، يقيناً منه بأنَّ المؤمنَ طَرُوب .

فأما حِدَّته فى الخطابة فقد خَفَتْ ، حتى غدا صوتُه عذباً رقيقاً ...

وأما سيفُه الخشبىّ فقد استكان فى يدِه ، فلم يَعُدْ يلوِّح به ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال . . .

ويوماً وقف الشيخ أمام الدار يحاورُ بعضَ النسوة الذاهبات إلى التُّرْعَة يملأن الجِرَار ، فقَدِمَ على الدار شابّ فى صُحْبَتِه امرأة ، وكان ذلك الشابُّ مطربَشا من أهل البنادر ، وهو زَرِىُّ الهيئة ، نحيف الجسم ، يَبِينُ على وجهه أنه من نُفَاياتِ المجتمع ، ومن السادِرِين الذين لا تقوم بأمثالِهم دعائم البيوت ، ولا تتحقَّقُ بهم هناءةُ الأُسَر .

وما إن وقعتْ عينُ الشابّ على شيخ الزاوية ، حتى اقترب منه قائلًا : خَدَّامُك « تهامى » يا سيدنا .

فابتسم الشيخ وهو يقول :

العفو يا افندى . . . العفو . . . ما مسألتُك ؟

فأجملِ الشابّ قصته ، فقد طلق امرأته الطلقاتِ الثلاثَ ، فأبتْ عليه زوجتُه أن تعاشرَه إلا بعدَ فتوى الفقهاء . . . وقد أفتاه أولئك الفقهاء بأنها لا تَحِلُّ له إلا إن تزوجتْ رجلًا غيره . . . فهو يعرِض على شيخِ الزاوية أن يكونَ ذلك الزوجَ المنشود .

وتفضّل الشيخ ، فأعلن قبولَه للنهوض بهذه المهمّة ، وانصرف الشابّ ، تاركاً امرأتَه « صابحة » فى كَنَفِ الشيخ إلى حين .

وكانت « صابحة » فتاةً موفورةَ الحظّ من الوسامة ، مترنحةَ الأعطاف من المَرَح . عاشرتْ الشيخَ بضعةَ أيامٍ ، فحلّتْ من قلبه أكرمَ مَحَلّ ، حتى لقد حَرَص على أن يقضِىَ معها أطولَ وقته ، فجعل يتخلّف عن الزاوية فى بعضِ الصلوات ، ويقصِدُ الأسواقَ هنا وهنالك ، لينتقىَ « لصابحة » حُلِيًّا وملابس ، ويَجْلُبَ لها فاكهةً وحلوى . . .

ووجدتْ « صابحةُ » نفسَها تتقلّب فى أعطافِ عيش ناعمٍ هنىّ ، فى كفالة رجل رَضِىّ النفس مِطْواع ، لا كزوجها الشابّ الصُّعلوك الذى كانتْ معه . . . رجل له شمائل لم تأنَسْها من قبلُ ، لا كشمائلِ زوجها

الذى لم يكن يُحْسِنُ إلا الشتمَ والإهانة وسوءَ المعاملة ... فأسبغتْ على الشيخ حنانها ورضاها ، وجعلت تتفقَّدُه إذا غاب ، وتتعهَّده إذا حَضَر ... وشعرتْ للحياة الزوجيــة بعاطفةٍ لم تشعُرْ بها قبلَ اليومِ ، فـكأنها وُلدتْ منذ الآنَ زوجةً بحقّ !

وفى فَجْر يوم دخل « الشيخ نعيم » على زوجتِه القـديمة المُقيمَةِ يخبرها بأنه رَأَى فى منامِه رؤيا صادقة ، كأنها فَلَقُ الصبح ... وتعبير تلك الرُّؤْيَا أن أمَّها مريضةٌ على شَفَا خطر ، فعليها أن تتداركَ الأمر ، فتنتقلَ إليها فى بلدها البعيد ، قبل أن يَحُمَّ القضاء . وسيلحَق بها بعدَ يوم أو يومين ، يدبِّر فيهما أمره .

ولم تمضِ ساعاتٌ معدودة حتى كانت المرأةُ قد تجهَّزَتْ للرحيل .

وانصرمتْ أيام ...

وهَبَطَ البلدة « تهامى » قاصداً بيتَ الشيخ الإمام ، فلما نَمَى إلى الشيخ مَقْدَمُه اكفهرَّ وجهه ، وخرج إلى الشابّ يرغَبُ إليه فى إمهال الزوجةِ أياماً تستوفِى بها المُدَّةَ المقرَّرة .

فانقلب الشابّ إلى بلده ، يملأُ نفسَه الاغتمام .

وفى الغـداةِ بعثَ الشيخُ رسولَه إلى الزاوية للإخبـارِ بمرضه وبحاجته إلى الاعتكاف فى الدارِ بضعةَ أيام .

ولَبِثَ الشيخُ بجانب « صابحة » يتملّى وسامتَها ، ويستمتع بصُحبتها ، وقد يُمسك بها ممتاحاً بين ذراعيه ، كأنما يريد أن يمنعها من الإفلات ، أو يحميها ممن يبتغي استلابها منه . . . ثم ينكبُّ على يديها تقبيلا ، والدمعُ من عينيه ينهمر !

وفي غَفوةٍ من غَفَواته هتف به الهاتفُ قائلا : لا تُفرِّطْ يا « نعيم » في « صابحة » . . . لقد وهبكَ اللهُ إياها إنقاذاً لها من براثن ذلك الذئب الجائع . . . إنها أهلٌ لك ، وأنت أهلٌ لها !

وحضر « تهامى » يطالبُ الشيخَ الإمامَ بأن يردَّ إليه امرأته ، واحتدَّ في حديثه معه ، فخرج الشيخ من حِلْمِه ، وصاح بالشاب :

ألم أقل لك لا تتعجّل ؟ إن اللهَ مع الصابرين !

ولكن « تهامى » لم يفهمْ ماذا يَعني الشيخ بالصبر ، وقد لبثت المرأةُ عنده أكثرَ من أسبوعين ، وكان الأجَلُ بضعةَ أيام .

إلا أنه اضْطُرَّ إلى امتلاك غضبه ، فترك الشيخَ مُواعِداً إياه أن يعودَ بعد أسبوع ، ليستردَّ امرأته .

وانقضَى الأسبوع ، والتقَى الشابُّ والشيخُ بباب الزاوية ، يومَ الجمعة ، عَقِبَ الصلاة . . . فبادره الشيخ قائلا :

أَحَضَرْتَ أيضا ؟ ما هذه الجَسَارة ؟ !

فَعَجِبَ « تهامى » مما يسمعَ ، وظَلَّ هُنَيْهَةً لا يتكلم . ثم اندفع صائحاً يقول للشيخ :

أَيُّها الجَسُور ؟ لقد جئتُكَ أُطَالِبُ بردِّ زوجتى إلىّ .

فتراجَعَ الشيخُ خُطُوَات ، وتجمَّع الناسُ يتساءلون : ما الخبر ؟

وَسَرْعانَ ما شعر الشيخُ بالحَمِيَّةِ تَدِبّ فى أوصاله ، فالتهب وجهُه ، واعتدلتْ قامته ، وانبعثَ من عينيه شُواظ يخترق الحُجُب .

ولبِث الشيخُ يحدِّق فى عين الشمس ، ويُرْهِفُ السمعَ لصوت الهاتف ، مُهيباً به أن يحتفظَ « بصابحة » التى وهبهُ اللهُ إيَّاها ، إنقاذاً لها من بَرَاثن ذلك الذئب الجائع .

وثَمَّـةَ انتفض « الشيخ نعيم » انتفاضةَ بِشْرٍ وارتياح ، وصاح من أعماقِ قلبه قائلا : ياعبادَ الله ! . . . ياعبادَ الله !

فتجمَّع الناس من هنا وهنالك ، وأحاطُوا بالشيخ ، وأنصتوا له ، وقد خشعتْ منهم القلوب ، وتعلقتْ الأنفاس .

فقال الشيخ جَهْوَرِىَّ الصوت : أَتَثِقُونَ بى أم أنتم لا تثقون ؟

فصاحوا صوتاً واحداً : إنا بك واثقون !

فاستأنف قائلا : لقد هدانى الله إلى انقاذِ مُطَلَّقَةِ هـذا الشابّ ، وحمايتِها من شرِّه . . . فهل أَعْصِى أمرَ الله ؟

فقالوا جميعاً : كلا ، بل تَمْضِى على هُدًى من الله !

فابتلع الشيخُ ريقَه وهو يقول : لقد وهبتُ نفسى لصالح المؤمنين والمؤمنات . . . وليس فى مقدورى أن أتنحَّى عن حق الله علىّ ، ولو كان فى ذلك حَتْفِى . . . فهل أنا فى ذلك أُلَام ؟

فأجابوه : لا لَوْمَ عليك !

فقال لهم وهو يشير إلى الشابّ : إذن كُفُّوا عنِّى هذا !

وما كاد الشيخ يُتِمُّ جملتَه ، حـتى أَحْدَقَ الناس « بتهامى » وأبعدوه عن الزاوية ، وما زالوا به حتى فارقَ البلدة ، وهم يُنْذِرُونَه بالويل إن عاد .

وسار « الشيخ نعيم » ميمِّماً دارَه ، فى جَمْعٍ من النـاس ، وهو يتهادَى فى مِشْيَتِه ، تَحُفُّ به المهابة والجلال . . .

كَبْشُ الفِدَاء

لم يتركْ « عبدُ الخالق » فراشَه إلا فى الضحوة العالية . . . وكان أبوه قد بارح المنزل مبكِّراً ، كما هو شأنُه كلَّ يوم .

وأخذ « عبد الخالق » يتناول فَطُوره ، وهو ثائر متسخِّط ، وما لبِث أن صَدَرَ عن المائدة مهروِلا إلى المَطْهَى ، فما إن واجه الجاريةَ « مبروكة » حتى تطاول عليها بالشَّتْم والضرب ، لأنها لم تَحْبِس القطَّ « فلفل » ، إذ لمح شَبَحَه أثناءَ تناوُله الطعام .

ورجع « عبد الخالق » إلى رَدْهة البيت ، فألفَى أمه على مألوف عادتِهـا تجلس على وِسادة ، مختمرةً بِخِمارها الأبيض الناصع ، وهى ترتشفُ قهوةَ الصباح ، فأخذ مجلسَه حِيالَها صامتاً عبُوسَ الأسارير ، ثم جعل يتنهَّد ويزْفِرُ ، فأقبلتْ عليه أمُّه تلاطف رأسه ، وقالتْ له وهى تبتسم : إنى أَحْزِرُ ما يشغَل بالَك أيها الماكر !

فأجابها وهو يَنْأَى عنها بجانبه :

ولكنكِ تأبَيْنَ أن تعينيني على ما أريد . . . لقد استيقنتُ أنكِ لا تتوخَّيْنَ راحتي . . . لا تُضْمِرين لي حباً !

فطوقته بذراعها ، وهي تقول :

أتجرؤ أن تتفوّه بمثلِ هذا القول يا جاحدَ الجميل ؟

— الأمر جَلِيّ . . . لو كنتِ تحبينني لسعيتِ لي عند أبي حتى يُبْرِمَ الأمرَ الذي تعرفين !

فغمغمت الأمُّ، وقد غَضَّتْ من بصرها :

ولكنك تَعْلَم يا « عبد الخالق » أن أباك . . .

وأمسكتْ عن الكلام ، متشاغلةً بطرف ثوبها تتحسَّسه ، فقال ابنها محتدَّ اللهجة : أَحْلِفُ لك إنكِ إذا لم تُقْنِعِي أبي اليومَ بإنجاز هذا الزواج ، فإني أغادر البيت ، ثم لا تعرِفينَ لي من أثر .

فَطَفِقَتْ الأم تحدّق في وجهِ ابنها بعينٍ قَلِقَةٍ حَيْرَى ، وهمهمتْ :

أيّ كلام هذا يا « عبد الخالق » ؟

— قولٌ فَصْل . . . إذا لم تنته مسألة الزواج اليومَ ، فهذا فراق بيني و بينِك . . . سوف أريحُكم من وجهي ، وأُريح نفسي من هذا العيش الأَنْكَد !

فأخذت الأمّ بيد ابنها تَضْغَطها ، وهي تقول :

ما أقسى قلبَكَ يا بُنَىَّ . . . أيسوغ لك أن تفعلَ هذا ؟

فجذَب « عبد الخالق » يدَه ، ولبث يبعث فيما أمامه نظراتٍ حامية . . .

ولاح شَبَح القط « فلفل » فى رأس الرَّدْهة يتمسَّح بالباب ، وهو قِطّ حالك السواد ، أملسُ الفَرْو ، كأنه قطعة من ليل بَهيم ، يُضىء فيها إشعاع مترجرِج يسترسلُ من فَصَّيْن ملوَّنَيْن ، هما عَيْناه .

فما كاد الفتى يَقَعُ بصره على ذلك الشَّبَحِ الطارئ ، حتى عَجِلَ إلى خُفٍّ كان على مَدِّ يده ، فرمىَ القطَّ به ، وهو يصيح :

لن تفْلِتَ من يدى أيها القَذِر المشئوم !

فما أسرعَ أن قفز القطّ هاربا ، وهو يَمُوء بصوت بشِع مُزْعِجِ النبرات .

ونهض « عبد الخالق » يتأهَّب للخروج ، فسألته أمّه فى ضراعة وتحنّن : إلى أينَ يا بُنَىَّ ؟

فصاح الفتَى يجيبها بقوله : إلى جهنم . . . أتريدين أن تَحْبِسِينى فى البيت ، كالقط « فلفل » والجارية « مبروكة » ؟

— وهل منعتُكَ من الخروج يا بُنَىَّ ؟ . . . انصرفْ فابسُطْ نفسَك وتنزَّهْ .

— ليس فى مقدور أحد أن يمنعَنى من ذلك . . . سأبسُط نفسى ، وسأتنزَّه . . . أما القطّ « فلفل » فأقسم بالله العظيم لَيَلْقَيَنَّ حَتْفَه على يدى . . . إنه يحيا فى هذا البيت يَرْتَع ويلعب ، كأنه أمير مُرَفَّه ، فأما أنا فأحيا فيه كأنى كلب ذليل !

— إنه قط أبيك يا « عبد الخالق » وأنت تعلم أنه أثِير عنده ، حبيبٌ إليه . . .

فقال الفتى محتدَّ الصوت :

أبى ؟ أتلقِّبينه أباً ، وهو ذلك العاتى المستبدُّ الغَشُوم ؟

فنظرتْ إليه أمه فى عجَب و إشفاق ، وهى تقول خافضة الصوت :

أبهذا تصف أباك ؟ تَأَدَّبْ يا بُنَىَّ !

فبادرها بقوله : لا تتمادَىْ فى القول ، فتثيرِى غضبى عليكِ .

فهمهمتْ الأمّ تقول : هداك الله يا « عبد الخالق » !

ومَثَل الفتى تُجاهَ المِرآة وهو يصلح من هِنْدامه ، و يعانِى أن يَفْتِلَ شاربَه الطَّرِير ، وقد رَنَّح أعطافَه العُجْبُ بنفسه ، والتباهِى بِفُتُوَّتِه .

ولما أبلغتْه المرآةُ مأربَه ، استدارَ فى وقفته ، يقول لأمه فى لهجة الآمر : عَلَىَّ بـ « ريال » !

فتنهدت المرأة ، وتحركتْ يَمْنَة ويسرة ، ثم أخرجتْ له من تحت

الوِسادة ما طلب . فما إن تناول «الريال» حتى رَكَضَ إلى السُّلَّم يهبط على درجاته فى قفزات متواصلة .

فلاحقَه صوتُ أمه ، وهى تجأر قائلة : على مَهْلِكَ يا « عبدَ الخالق » الدِّهليز مظلم . . . خُذْ حِذْرَكَ يا بنى . . . حماكَ الله ونجَّاكَ !

ظهر « عبد الخالق » فى الحارة ، وشرع يَخْطِرُ فى أرجائها ذُهوبا وَجَيْئَة ، وهو يتطلَّع إلى منزل « أم محمد » الدَّلاَّلة .

وكان بين الفينة والفينة يبعَث من فمه صَفِيرا يحاكِى به لَحناً من الألحان الشائعة ، وهو يَعْبَث بسلسلة فى يده .

وبعد حين أَهَلَّت من منزل « أمِّ محمد » فتاة ضامرة تحتويها مُلاءة ، وقد تزينتْ زِينةً رَخِيصة ، وتأنقتْ أناقة وَضِيعة .

وما كاد « عبد الخالق » يراها ، حتى تقاصَرَتْ خُطَاه ، وتخايلتْ على وجهه بَسْمة وهَّاجة ، ثم أخذ يتنحنح ، فإذا بالفتاة تنفرط منها ضحكة رنَّانة ، وقد واصلتْ سَيْرَها ، كأنها غيرُ مَعْنِيَّة بأمر الفتى الهَيْمَانِ الطَّرُوب !

فحثَّ « عبـد الخالق » خُطاه إليها ، حتى دنا منها ، وقال لها مُعابثا : إلى أين يذهب الغزال اللَّعُوب ؟

فـكسرتْ له الفتاة عينَها ، وهى تقول فى مداعبة ودَلّ :

ما لَكَ وما لى ؟

— عَجَباً لكِ يا « فائقة » ... غداً يكون لى معك شأن أىّ شأن !

ثم أرسل سَعْلَة مديدة ، وأتبعها قولَه :

سينتهى الأمر عمّا قريب . . . كل شىء يسير وَفْقَ المرام .

فلم تُحرِ الفتاة كلاما ، كأنما يَعْصِمها الخجل ، وواصل الفتى حديثه قائلا : إن هى إلا أيام ، ثم يَتِمُّ بيننا عَقْدُ الزواج .

وامتدّت يده إلى يدها تضغطها فى شَغَف ، فتكلفتْ الفتاةُ أن تَجْذِبَ يدَها ، وهى تقول :

احتشمْ يا « عبد الخالق » . . . ألا تخشى أن يرانا أحد ؟

— مِمَّ أخشَى ؟ وهل فى هذا العمل ما يُعَاب ؟ ألم أقل لكِ إنكِ ستكونين لى زوجا ؟

فأجابته فى صوت لَيِّن المَـكَاسِر : وهل تمَّ كل شىء ؟

فقال الفتى : ستزوركم أمّى غداً لتخطبَكِ لى . . .

— وهل علم أبوكَ بالأمر ؟

— علم أَوْ لم يعلم . . . المسألة تتعلَّق بي .

فنكَّسَتْ الفتاةُ رأسها ، وقالت وهي تَعْبَث بأناملها :

أخشَى أن يَحُولَ أبوكَ بينَك وبينَ ما تريد .

فردَّ عليها في عزّة وكبرياء : هيهات له أن يفعل ذلك !

فألقتْ عليه نظرةَ أسف وخوف ، فاختلج الفَتَى غيظاً ، ثم اندفع يقول لها في لهجة حاسمة :

لا تحسُبي حِسابا لغيري . . . أمري كلُّه في يدي !

وكان الفتى والفتاة قد بلغا رأس الطريق العامّ ، فافترقا .

وركبتْ « فائقة » الترام ... فأما « عبد الخالق » فقد عَبَر الشارع وسار مطرقَ الرأس ، ضيقَ النفس ، يستبدُّ به التفكير .

وبينما هو في مَسِيره ، إذْ شَعَر بيد تلاطف كَتِفَه ، فانثَنَى يتبيَّن الأمر ، فإذا بصاحبه « دسوقي » يقول مفترَّ الثغر :

ما هذه السَّحْنة المقلوبة يا « عبدَ الخالق » ؟ في أيّ شيء تفكر ؟

— . . . لا شيء !

— مَنْ يراكَ على هذه الحال يكاد يُنْكِرُكَ . . . عاشقٌ أنتَ أم مفارق ؟

— لا أنا عاشق ولا أنا مُفارق .

فأشرع « دسوقى » إلى صاحبه نظراتٍ نَفَّاذة ، ثم قال له :
ما الجديدُ فى شأنِ البنت « فائقة » ؟
فَوَجَمَ « عبدُ الخالق » لَحَظات ، وأجاب ساهما :
دَعْنا من هـذا الموضوع .
— أَأَخَّرَ زواجـكما تدبيرُ المـال المطلوب ؟
— المال لايُعْوِزُنِى يا « دسوقى » . والدتى تَـكْفُلُ لى كلّ شىء .
ولـكن . . .
— إذن ليس فى المسألة إلا أن يَرْضَى أبوكَ .
فخَفَضَ « عبد الخالق » رأسَه ، وأخـذ يدير سلسلته مهتاجَ الأعصاب .

واستأنف « دسوقى » قوله : الحقّ أن أباكَ جاوزَ الحدّ . . . كن شجاعاً فى مخاطبته ، وافرِضْ رأيك . . . لم تَبْقَ طفلا !
فرفع « عبد الخالق » رأسَه ، وقد تضرمتْ عيناه ، وطَفِقَ يجمجم وهو حائر قَلِق .
فباغَتَه صاحبه بقوله : أتعرِف من الذى يحرِّض أباكَ عليكَ ؟
— من ؟
— « الأسطى بيومى » الحلاَّق . . .

فانطلقتْ من فم « عبد الخالق » صيحةُ حَنَق ، وهو يقول :
الوَغْد . . . الدنىء . . . لن يُفْلِتَ من يدى !

— ما قولك فى الترصُّدِ له الليلةَ ، و إشباعِه ضر بًا ؟

— فكرة موفَّقة .

— سأجمع الصِّحَابَ هذا المَساء ، ثم ننتظره فى منقَطَع الطريق ، وهو فى مَآبِه إلى داره .

وتابع الصديقان سيرَهما ، وهما يتجاذبان الحديثَ فى تدبير الْخُطَّة بصوت مخفوض .

وانقضى يومان لم يَفْتُرْ فيهما « عبد الخالق » عن محاصرة أمه ، والإلحاح عليها ، لكى يحملَها على أن تفاتحَ أباه فى شأنِ زواجه المنشود .

واضطُرَّتْ الأم أن تنصاعَ لرغبةِ الفتى ، فوعدتْه بأن تفاوضَ الليلةَ أباه .

و بينما كان الفتى وأمه جالسيْن على الوسائد بعد العشاء ، إذ تناهىَ إلى سمعهما صريرُ الباب ، وخَفْقُ القدم ... فَعَلِمَا مَنِ الطارق .

وتعالَى صوت « محجوب افندى » يسبُّ الجاريةَ « مبروكة » لإهمالها تنظيفَ الدِّهليز .

فقالت الأمّ على ابنها هامسة :

يبدو على أبيك الليــلةَ أنه ليس بصافى المِزَاج !

فعقَّبَ عليها الفتى محتدَّ اللهجة :

لا يَعْنِينِي أن يكونَ صافىَ المِزاج أو لا يكون . . . لا بدَّ الليلةَ أن تنتهىَ مسألةُ الزواج !

وهنا كان « محجوب افنــدى » قد صَعِد الدَّرَج ، وهو يزمزم ويجمجم ، والقطّ « فلفل » يتمسَّح بثيابه ، فلمــا بلغ الرجلُ رَدْهَةَ البيت وقع بصرُه على ابنه « عبــد الخالق » ، فأخذ يَحْدِجُه بنظراته ، وهو يحاول أن يتطاولَ بقامته القصيرة ، و يتنفَّخ بجسمه المتضائل .

وصاح بالفتى قائلا :

كيف جَرُؤتَ أن تضربَ « الأسطى بيومى » يا وَلَد ؟

فأراد الفتى أن يتحدَّى سطوة أبيه ، وأن يغالبَ نظراتِه ؛ ولــكن ما كادت أعينُهما تتلاقَى ، حتى كَسَر الفتى من بصرِه ، وقال مستكينَ الصوت : لم يحدُثْ ذلك والله العظيم !

— بُعْداً لك من كاذب أثيم . . . أَجِبْنِي : كيف جرؤتَ أن

تضرب « الأسطى بيومى » ؟ انطِقْ وإلا تركتُكَ فَقْدَ النطق .

— أُقْسِمُ برأسك الغالى إنى برىء !

— لقد كنتَ فى عُصبة من الأشرار ، بينهم « دسوقى » ذلك الولد الفاجر الذى حرّمتُ عليك أن تكونَ لك به صلة . . . لقد تَرَصَّدْتُم « للأسطى بيومى » فى منتهَى الطريق .

— كَذَبَكَ من بَلَّغَكَ يا أبى !

— اخْرَس يا ولد . . . فأنتَ الكذوب !

واقتربت الأمّ من زوجها ، على فمها ابتسامة ذليلة ، وقالت :

سَكِّن من رَوْعِكَ يا « محجوب افندى » . . . الولد جاهل لا يحسن الكلام . . . ربما كان مظلوما . . . تعالَ فاجلسْ أُهَيِّىءْ لك قَدَحاً من الشاى ، فأنتَ الآن محتاج إلى هدوء البال .

وتضاحكت الزوجة ، تعالج الترفيه عن الأب المُغْضَب . فنظر الرجل إليها نظرة استخفاف ، وقال لها :

لستُ أدرى ماذا تقصِدين ؟ أتبغِينَ أن أُغْضِى على تلك الأعمال السيئة التى يقترفها ابنُكِ مع الناس ؟

فأجابته الأم : لستُ أريد منك أن تُغضِى، ولكن على رِسْلك ،

ولتكن حَلِيما . وليس « عبدُ الخالق » بأول ولد تنزلقُ قَدَمُه في هذه الأعمال الصِّبْيانية .

— هكذا أنتِ تعمَلين على تهوينِ ما يرتكبه هذا الولد ، فتشجِّعينه على أن يفعلَ ما يَهْوَى . . .

فمالتْ الزوجة على كتف « محجوب أفندى » تلاطفه متخاضعةً متفننة في تسكين غضبه ، وهي مسترسلة تقول :

أنتَ في كلامك مُحِقّ . أنا التي أخطأت . ولكنك تعلم قلبَ الأم ... و « عبد الخالق » مهما يكن من أمره فتى طيِّب السريرة ، ولعل ما بلغك في شأنه وِشايةٌ من أهل السوء ! . . . تعال اجلس ، وروِّقْ بالك . سأذهب لأصنعَ لك الشايَ بنفسى .

وهُرِعَتْ الأمّ إلى المَطْهَى ، و « عبد الخالق » يَتْبَعُ خُطاها .

وأخذ « محجوب أفندى » مجلسَه على الوسائد ، وانكفأ على سُبْحَتِه يداولُ حَبَّاتِها بين أصابعه .

ورجعت الزوجةُ تحمِل قَدَح الشاى المعطَّر ، وقدَّمتْه إلى الرجل ، وهي تقول في تضاحُك :

أُقسم برأسك الغالى إنه ليس في مصر كلِّها من يستطيع أن يصنَع قدحا من الشاى مثلَ هذا القدح . . . اشربْه ، وطبْ نفساً به !

ونظرتْ إليه تستجديه البِشر والابتسام ، فلوىَ عنها عُنقَه ، وظل منكفئاً على سُبْحته .

ولاح فى أقصى الرَّدْهة « عبد الخالق » يستخبر الحال .

وعَمَّ الردْهة صَمْت مُطْبِق ، لم يكن يقطعهُ إلا صوتُ ارتشاف الشاى ، وبعضُ تنهدات تبعثُها الأم بين حين وحين ، وهى تبادل ابنَها النظر فى خُفْيَةٍ وحِذَار .

وبعد فترة مَدَّت المرأة يدها فى تلطّف ، تَدْلُكُ قدمَىْ زوجِها المكدود ، وقالت فى صوت متخافِت ، وبصر زائغ : لى عندكَ رجاء !

فأجابها الرجل ، وهو يَنْأَى عنها بجانبه : أىّ رجاء لك ؟

— عِدْنِى أوّلا أن تستجيب له .

— عجيب أمرُكِ . . . أخبرينى لأعرفَ ماذا تريدين ؟

فانكبَّت المرأة على ركبته تقبِّلُها مهتاجة ، وهى تقول :

اصنَعْ معروفا معى ، واستجبْ لرجائى .

فقال لها الرجل ، وهو يتباعد عنها :

أَفْصِحى . . . أَفْصِحى عما فى نفسك !

فرفعتْ إليه المرأة عينين خَضَّلَهُمَا الدمع ، وقالتْ فى صوت منقطِّع : أريد أن أَفْرَحَ « بعبد الخالق » . . .

فحملق الرجلُ ، وقد أَزْهَرَتْ عيناه ، وقال :

تفرحين « بعبد الخالق » . . . بهذا الولدِ الخائب ؟ !

فتشبثتْ المرأةُ بثوبه تقول : اصنَعْ معروفاً معى . . . لا أطلبُ منكَ إلا كلمة القبول . . . واتركْ ما بَقِيَ أدبِّره بنفسى .

فلم يُحِرْ زوجُها من جواب ، وطَفِق يداعب حَبَّاتِ السُّبْحة بأصابعَ جَيَّاشة ، وواصلتْ الزوجةُ قولها فى لهجة استعطاف وتذلل :

أَشْتهى أن أرَى حفيداً لى . . . أتمتع به قبل أن تحينَ مَنِيَّتِى... أضمُّه إلى صدرى ... يملأُ البيتَ أنسا وبهجة !

فتنحنح « محجوب أفندى » وطال تنحنحه ، دون أن ينبِسَ .

ولما تمادَى الصمتُ بين الزوجين ، شَرعت المرأة تقول ، وهى ناكسة الرأس ، تَدْعَك إحدى يديها بالأخرى فى إلحاح :

إنها بنت يتيمة مسكينة . . . وأهلها من جيراننا ومعارفنا الذين اتصلوا بنا من عهد بعيد .

فصعَّد الرجل نظره وصَوَّبه ، وعلى فمه تتخايل بسمة استخفاف . ثم قال :

أحْسَبُكِ تَعْنِينَ بنتَ « أم محمد » الدَّلاَّلة . . . البنت التى تظهر فى الشارع بالأبيض والأحمر ، وتتعوَّج فى مشيتها مثلَ الراقصات !

فنظرتْ إليه زوجهُ نظرة عتاب ، وقالت :

« فائقة » بنت « أم محمـد » . . . لا عيبَ فيها . . . بنتٌ طيبة عاقلة !

— ما أحسنَ اختيارَكَ العظيم . . . تبغين أن تخطُبى لِابنك إحدى بنات الشوارع ؟ ! . . . أقسم بالله إن هذا الولد لن يرى يومَ هناءة وسعادة ، مادمتِ تساعدينه على هذا الشرّ .

فأحسّ « عبد الخالق » بغتةً بأن ناراً تتضرم فى رأسه ، وأن عينيه قد اكتستا صِبغة حمراء ، فصرخ وجسمه تزلزله رِعدة :

يمينا إنى لن أرى لحظة راحة ، مادمتَ أنتَ عقبةً فى طريقى !

فأنفَذَ « محجوب افندى » بصرَه إلى مكان ابنه ، وقد اختلط عليه الأمر ، لا يكاد يصدِّق أن « عبد الخالق » يَعْنيه بهذا المُنْكَر من القول .

ثم صاح : ماذا قلتَ يا كلب ؟

ولبثتْ الأم حَيْرَى ، تنقِّل بصرها بين ابنها وزوجها ، وقد غَشِيَها شُحوب ، وسَرَى فى أوصالها تخاذُل وفتور .

وقالتْ لِابنها بصوت كأنه النشيج :

هذا عَيب منك يا « عبد الخالق » . إنّ مَن يُكَلِّمُكَ أبوك !

فقال الفتى بصوت تتجاوبُ أصداؤه فى أرجاء الرَّدْهة :

لا أعرف من تُسَمِّينَه أبى !

وما عَتَّم أن التفتَ نحو أبيه يقول : سأتزوج « فائقة » . . . رَضيتَ أو لم تَرْض . . . لم أبْقَ طفلا حتى تتحكَّم فى أهوائى !

وفى هذه اللحظة دَرَج القط « فلفل » إلى الردهة حتى توسَّطها ، وكأنه أحسّ بأن غيوماً تتلبَّد فى جوّ المكان ، فجعل يُرَأْرِئُ بعينِه حولَه ، وقد ارتفع ذيلُه ، وانتفشَ شعره .

وَطفِق الرجل يتقلَّب على الوِسادة ، يحاول أن يمتلك زِمامَ موقفه ، وقال مهمهما : أين عصاى ؟ اِيتونِى بها . . .

ثم نهض قائماً ، وهمَّ بأن يأخذ طريقه إلى ناحية ابنه ، فأسرعتْ الأم تَحُول بين زوجها و بين الانطلاق . ولكنها لم تُفْلِح ، وابتدأت المعركة بين الولد وأبيه ، فأقحمتْ الأم نفسها ، وتلقَّتْ أوفر الضربات ، وما زالت « بعبد الخالق » حتى نَحَّتْه إلى الباب ، تاركةً أباه يتابع زمجرته وهَدِيره .

وكان الولد يحاول الإفلاتَ من أمه ، ويُدِير بَصرَه يَمْنة ويَسْرة ، فالتقت عينُه بالقطّ « فلفل » ، وما هى إلا أن انكبَّ عليه ، وأمسك

به يُنْشِبُ أظفاره فى عنقه ، والقط يَعْوِى ، ويدفع عن نفسه بمخالبه وأنيابه . وخرج الولدُ به وهو على هذه الحال هائجاً مائجاً يَهْبِطُ الدَّرَج .

فاختلج الأب اختلاجة غيظ وحَنَق ، وهَمّ أن يَلْحَق بابنه ، ليستنقذَ قِطَّه الأَلُوف ، ولِيَثْأَرَ له . . . فوقفت الأم تعترض طريقَه ، وتقسم عليه ألاَّ يخطو خطوة ، وهى تقول :

أَقْصِرِ الشر . . . احمَدِ الله على أن الأمر انتهَى عند هذا الحدّ !

فلبِثَ الأب يحاولُ الخروج ، والأم تردُّه ، على حينِ كان مُواء القط يتواصل ، كأنه أَنِينُ مُحْتَضَر . . .



ضَربُ الحَبيب

المنزل الأخير فى « زُقاق المُحْتَسِب » بِحَىِّ « الحمزاوى » مَبْنًى عتيق ، تداعَتْ أركانُه ، وتخرَّبت جوانبه ، ولـكن ما بَرِحَتْ بعض معالمه تنطق بما كان له من مكانة فى العصر القديم ، بين باذخات الدُّور والقصور . . .

ولقد شُيِّدَ المنزل يوم شُيِّد ليكون مُقَاماً مستقلاًّ لأسرة كريمة سَرِيَّة تغيرتْ بهـا الأحوال ، وتَحَيَّفَتْهَا الأحداث ، حتى اضْطُرَّتْ فى يومها الراهن أن تقنعَ من المنزل بغرُفَاتٍ فى طبقته العليا ، لـكى يُتاحَ لها أن تؤجِّر سائر طبقاته وغرفاته لأشتات السُّـكَّان ، فيكونَ لهـا من ذلك دَخْل تستعين به على أعباء العيش ، وتـكاليف الحياة .

وليست هـذه الأسْرَةُ إلا زوجين محطَّمين عَلاهما الـكِبَر ، وابناً لهما يُدْعَى « يُوسُف » فى شَرْخ الشباب ، يقطع مرحلة التعليم الثانوى .

وكان « يوسف » هذا يزهو بوسامته ، ويحتفِى بزينته ، لا تراه

فى المنزل إلا متخَطِّرًا يتمثل فى نظراته الاعتزاز . وكيف لا يتعالى على بقيَّة السكان ، وهو يعرف أنه سليل الأمجاد من أصحاب هــذا البيت العتيق ؟

ومن بين سكان هذا المنزل أَرْمَلَة تُدْعىٰ « أمّ حسن » تتكسَّب بحياكة الأثواب ، وتصيب منها رِزْقا حَسَناً . وهى امرأة ليست موفورة الحظِّ من جمال المُحَيَّا ، ولـكنها تبدو دائمــاً مُتَبَرِّجة مكتملة الزينة والتعطُّر ، تعرف من عينيها أنها من ذوات الصَّبابة اللواتى تَحْفِلُ حياتُهن بالمغامرات . . .

وهنالك فى الجانب الخرِب من المنزل حجرة متهدِّمة أشبهُ بالجُحْر ، تُؤْوِى جَدَّةً ضَرِيرة معها حفيدتُها « بدرية » . . . فتاة فى رَيِّق العمر ، تَرْهَقُها غَبَرَة الفاقة والـكدّ ، ولـكنك تستشفُّ وراءَ ذلك القناع سِمَاتٍ من فتنة وحسن ، كما تأنَسُ ابتسامةَ القمر خلفَ غلائلِ الغيوم . . .

وكانت حياةُ هذه الفتاة نَهْباً مُقَسَّماً بين القيام على شئون جَدَّتها العجوز ، والتنقُّل فى مساكن المنزل أجيرةً تَخْدُم .

وغُدْوَةً صَعِدَتْ « بدرية » إلى الشِّقَّة التى يسكنها مُلاَّك الدار ، فما أسرع أن تجلَّى الفتى « يوسف » على عتبة الباب وهو متأهِّب للذهاب

إلى المدرسة . ولما رأى الفتاة قُبالتَه بشَّ لها ، وقال :

أهذه أنتِ يا « بدرية » ؟ . . . مصادَفة حسنة . . . كانت أمى تذْكركِ الساعة .

— أَطَلَبَتْنى هى ؟

— إنها ملازِمة الفراش ، منذُ البارحة ، وليس بجانبها من يكون لها عوناً .

— سَلَّمها الله .

وتحركتْ الفتاةُ أمام الباب تريد الدخول ، فاعترضَها الفتى يأخُذُ عليها الطريق ، وهو يبتسم فى مداعبة ، ويقول :

تقدَّمى . . . ماذايبطىء بك ؟

فضرَّج الخجلُ وجهَ الفتاة ، وقالت متلعثمةً خافضةَ البَصَر :

عجيبٌ أمرُكَ يا « يوسف افندى » . . . لم هذه المعاكسة ؟

فجعل الفتى يهتزّ طروبَ النفس ، وأجابها فى صوت مُنَغَّم :

ألا تعرفين يا « بدرية » لماذا أعاكسك ؟

فاعتلَتْ الفتاةُ برأسها ، فإذا هى تُلاقِى نظراتِ « يوسف » متلهِّبةً عَطْشَى ، فزادها ذلك من حيرة واضطراب ، واغتنم الفتى تلك الفرصة ، فأهوَى عليها يغتصب منها قبلة شَيِّقة ، فانبعثت الفتاةُ ثائرةً تردُّ عنها

ذلك المقتحمَ الجرىء ، فدفعَتْه بكلتا يديهـا دفعةً أسقطَتْه ، وعَجِلَتْ إلى الباب . . .

ونهض الفتى من عَثْرته مُحْنَقَ الصدر ، يجمع كراساته ، وَيلمُّ شَعَثَه ، وهو يهمهم :

لو لم تكن أمى مريضةً لعرفتُ الآنَ كيف أربِّيكِ أيتها الحمْقاء !

وهَبَط السِّلَّم متشامخاً يتوَعَّد ، و بلغ فى مَهْبِطِه شِقَّةَ « أم حسن » الأرمَلة الخيَّاطة ، فألفاها لدى الباب تسألُه فى تخابُث :

صباح الخير يا « يوسف افندى » . . . هَلاَّ أخبرتنِي كم الساعة الآن ؟

فأجابها وهو يَهُمُّ بمتابعة السير : أوفتْ الساعةُ على الثامنة .

وحملقتْ المرأةُ فيه ، قائلةً له فى دهشة :

ما هـذا يا « يوسف افندى » ؟

— أىَّ شىء تقصِدين ؟

— أتخرج إلى الشارع وأنتَ على هذه الحال ؟

— أيَّة حال ؟

— سُتْرَتُكَ ممزَّقة ...

— أنا ؟

فتلوَّتْ المرأةُ ضاحكةً فى دَلال ممقوت ، وقالت :

بل سُتْرَتى أنا . . .

ودَعَتْه إلى دخول مسكنها ، وما أسرع أن أقبلتْ على السُّتْرة تَرْتُقُ ما جَدَّ فيها من فتوق ، وهى تقول :

ما خَطْبُ هذا التمزيق ؟

فقال لها الفتى ، وهو يعالج التخلصَ من مجاذبتها الحديث :

أرجو منكِ أن تَفْرُغِى من الرَّتْق ، فقد أبطأتُ عن المدرسة .

فكَسَرَتْ له المرأة عينها ، وقالت له فى لهجة ماكرة :

وماذا أبطأ بكَ اليومَ يا « يوسف افندى » ؟

فأزاغ الفتى بصره عنها ، وهينم : شَغَلَتْنِى بعضُ الشئون .

فصوَّبَتْ المرأةُ إليه أنظارها تتفحَّصُه ، ثم همستْ فى أُذُنِه :

إنهـا فتاة وَضِيعة . . . لا يليقُ بكَ أن تقيمَ لها وزناً .

فتشاغل الفتى بترتيب أوراقه ، وقال : دَعِيكِ من هذا الـكلام .

فتدانتْ منه المرأةُ تلاطفُ كَتِفَه ، وهى تهمهم :

يا لها من شِرِّيرة شَغُوب ... أأصابكَ سُوء من هذه السَّقْطة ؟ لقد استطار قلبى من أجلك !

فاشتَدَّ الضِّيقُ بالفتى ، وقال لها :

ألم يَنتَهِ الرّتْقُ بعدُ ؟ أرجوكِ يا ستّ « أم حسن » . . . أرجوكِ !

وأحسَّ الفتى بذراعها تُطوِّقُ خَصْرَه ، و بأنفاسها تتلاحَقُ عليه ، فنأى بجانبه عنها ، وانطلق راكضاً يقول :

أشكركِ . . . سَعِدَ صباحُكِ !

وَتبِعَتْه الأرمَلَة إلى البـاب ، ولبثَتْ ترقُب شَبَحه وهو يهبط الدَّرَج إلى الطريق .

وفيما هى على هذه الحال ، سمعتْ خَفْقَ أقدام من أعلى السُّلَّم ، فأشرعتْ عينَيها ، فإذا هى ترى « بدرية » هابطـةً على مَهَل ، فوقفتْ تنتظرها ، وقد تَنَمَّرَتْ عيناها . وما إن اقتربتْ الفتاةُ منها حتى رمتها الأرمَلَة بنظرات تَتَلَظَّى ، وخطتْ نحوَها تقول فى حِدَّة :

لقــد تجمَّعتْ الأقذار فى الصفائح ، وأنت فى شُغُل عنها . فمتى تتفضَّلِين بحملها ؟ أتنتظرين حتى أقذِفَ بها فى وجهك ، أو أصبَّها على رأسك ؟ . . . أراكِ مصروفةً إلى المشاجرة و إقلاقِ راحة النـاس ، فأما عملُكِ الذى تتقوَّتِينَ به فلا يقعُ منك ببال . . . مالكِ و« ليوسف افندى » ؟ . . . خيرٌ لكِ أن تَغرُبِى عن وجه هذا الفتى ، و إلا كان لكِ الوَيْل !

فنظرتْ إليها الفتاةُ حائرةً مضطربة ، تقول :

لا شأن لى « بيوسف افندى » أو غيره . . . إنه عندكِ فاطمئنِّى به .

فجَنَّحَتْ لها الأرمَلَةُ يديها ، وكأنما مَسَّها شيطان ، وقالت للفتاة :

ما أطولَ لسانَكِ أيتهــا الوَقِحة . . . ماذا تريدينَ أن تقولى ؟ أتظنِّين أنى أنافِسُك فيه ؟ من تكونين أنتِ حتى يكونَ بينى و بينكِ منافسة ؟ ألا تعلمين شأنَك فى هذه الدار ؟ خير لك أن تَشْغَلِى نفسَك بتنظيف المساكن ، وحَمْل الـكُنَاسَات !

واسترسلت الأَرْمَلَة تُطْنِب فى الشتم والتقريع ، على حين تابعتْ الفتاةُ مَهْبِطَها ، غيرَ معنِيَّــة بالردِّ على ما تسمع من مرذول النعوت والأوصاف .

و بلغت الفتاةُ حجرتَهـــا ، فألفَت جَدَّتها كما تركَتْهَا تَغُطُّ فى نومها ، فانتبذتْ ركناً من الحجرة ، وألقت رأسها بين يديهــا ، ولبثتْ تفــكر فيما كان من شأنهــا مع الفتى « يوسف » والأرمَلَة « أم حسن » .

و بينا هى تغالب مختلف المشاعر ، إذ أحستْ بالدمع ينفرِط من مآقيها ، حتى إنها لم تَمْلِكْ أن تردَّ ذلك الشهيقَ الذى استبدَّ بها ينافس غَطِيطَ جَدَّتها العجوز .

وأخيراً أفاقتْ من نَوْبة النحيب ، وقد عاود نفسَها شيء من السكينة والقَرار ، فنهضتْ تصلح من شأنها ، وخرجتْ تستأنفُ سَعْيَها الذى أَلِفَتْه كلَّ يوم فى سبيل القُوت .

ولما طلبتْ النومَ فى عَشِيَّةِ ذلك اليوم ، لم يستجبْ لها ، وظلت أَرِقَة قَلِقَة ، كأنها تتقلَّبُ على الشوك ، وهى فى مُلْتَطَمٍ من الأفـكار والمشاعر لا تجدُ منه مَنْجَاة ...

أَتجاوزَ الفتى حَدَّ المألوف حين هَفَتْ نفسُه إلى تقبيلها ؟ أقَستْ هى عليه ، إذ دفعتْه فأسقطتْه دون إشفاق ؟ ألم يكن أَحْجَى بها أن تَرُدَّه عنها فى رِقَّة وذوق ، وألَّا تتجاوز الحدَّ فى الصدِّ والردّ ؟ وما بالُ هذه الأرمَلَة البغيضة تُقْحِمُ نفسها فى شـأن فتاها ، فتنبرى للدفاع عنه بلا مُسَوِّغ ؟ . . .

وكان وجه الفتى « يوسف » يَلُوح لها وهى على هـذه الحال متباينَ الأوضاع والصُّوَر ، فتارةً هو عبُوس كالح ، وحيناً هو مشرق بَسَّام . . . وهو فى كل حالة من أحواله يلاحقها ولا يفتأ يلاحقها ، حتى إنهـا لَتُخْفِى رأسَها بين الوسائد ، كأنمـا تهرُب من طيفه اللَّجُوج !

وطوّحتْ بها الأفكار والصُّوَر ، وظلت ترمي بها المَرامِيَ ، حتى أسلمتْها إلى وادي الأحلام .

وانصرمتْ أيام ، والفتاة تراجع مألوفَ هدوئها رُوَيْدا ، وقد بَنَتْ عزمها على أن تَتَنَكَّبَ عن سُكَّانِ هذه الدار جميعاً ، وبخاصّةٍ مَسْكنُ الفتى « يوسف » والأرمَلَة الشَّغُوب . . .

وفي أصِيل يوم وافقتْ صاحبَ الدار عن كَثَب من الباب ، وهو متوكِّىء على عصاه ، يكافح ضعفَه واعتلاله ، فما إن لمحها حتى أطلق صوتَه يناديها ، فتصامَمَتْ عنه ، فكرَّر النداء ، فلم تجد مَفيضاً من التلبية ، فواجهها بقوله :

ما هذا يا « بدرية » ؟ كيف سَوَّلَتْ لكِ نفسُك أن تتخلَّفِي عنا ؟ لقد سألْنَا عنك ، وانتظرْنا حضورَكِ ، فماذا أبطأ بِكِ ؟

فأجابته وهي خافضة البصر :

المعذرة ... فإني كثيرة الشواغل ، وجَدَّتي مريضة .

فقال لها الرجل :

ألا تعلمين أن « أم يوسف » هي الأخرى مريضة لا تَرِيمُ الفراش ؟ . . . إنها تطلب أن تراكِ ، فاعْجَلِي إليها .

فهمهمت الفتاة تَعِدُه أن تزورَها بعد قليل . فتركها الرجل يتحامل على عصاه ، ويقتلع قـدميه . ووقفت الفتاة فى مَدْخَل الدار شاردة النظرات فَـتْرَة ، تسائل نفسها :

أَتَـفِى بوعدها ؟ أم تظلُّ على حالها تتجنَّبُ هؤلاء الناس ؟

وانتهى بها الأمر إلى أن اعتزمت ألا تصعَدَ إلى مسكن صاحب الدار . وفيما هى على وَشْك المُضِىِّ ، تواترتْ على سمعها أصوات مختلطة تتناثر من جانب السُّلَّم . فالفتْ رِجليها تقفان ، وأذنيها تصغيان ، تحاول تَعَرُّفَ الأصوات ، وتَمْيِيز بَعضِها من بعض ، وقد أحستْ أوصالَها تختلج . وإذا هى تَدْلِف فى حِذَارٍ ومساتَرة ، وتُتَابِعُ الإنصاتَ، ليتسنَّى لها أن تتصيَّد ما يَشِيع من أصوات .

كانت « أم حسن » وقتئذ بباب مسكنها ، تعابِثُ الفتى « يوسف » وتضاحكه وتجاذبه الأَفَاكِيهَ ، فتسمرتْ الفتاةُ فى موقفها مهتاجةً تتساقط إليها تلك الكأْسُ المريرةُ قَطَرَاتٍ ، فتتجرَّعُها على غضاضتها ، يدفعها إلى ذلك دافع نفسىّ لا قِبَلَ لها بأن تردَّه .

وبغتةً أحسَّتْ الفتاة بأن باعثا يَزُجُّ خطاها خارجَ الباب ، فَهُرِعَتْ إلى حجرتها ، وشرعت تستبدل بثوبها ثوباً آخرَ أنظفَ وأزهَى ، ثم أخذتْ زينتَها ، وما إن اطمأنتْ إلى أنها بلغتْ مأربَها مما

تريد ، حتى خرجتْ من الحجرة قاصدةً مَدْخَلَ السلم تُرْهِفُ السمع ، فلم تَلْقَ هنالك إلا صمتاً شاملاً . . .

وما أسرع أن جعلت ترتقى الدَّرَج ، تحدوها فكرة جامحة . ولما بلغتْ فى مُرْتَقَاها شِقَّةَ « أم حسن » تمهلتْ رويداً تتسمَّع ، فتناهتْ إليها أحاديث الأرمَلَة مع عاملاتها الأجيراتِ تأمر وتَنْهَى !

فحثَّتْ الفتاةُ قدميها إلى شِقَّةِ صاحب الدار ، وقرعتْ الباب جَيَّاشَةَ المشاعر ، وما هى إلا أن انفرج البابُ عن الفتى « يوسف » ففاجأه مَرْأَى الفتاة ، ولـكنه تمالك واستجمع ، وراح يَحْدِجُها بنظرات حِدَادٍ ، وقد حضرتْه حادثةُ الأمس حين لَقِىَ من هذه الفتاة مَهَانَةً جرحتْ كبرياءه وعِزَّتَه . ثم افترَّ ثغرُه عن ابتسامة كريهة ، وهو يقول عابثاً بسلسلة المفاتيح فى يده : ماذا جاء بِكِ يا ست « بدرية » ؟

فأجابتْه من فورها فى لهجة يَشِيع فيها الاضطراب ، محاولةً أن تَضْبِطَ عواطفَها ، وهى تُزِيغُ عنه البَصَر :

جئتُ أزورُ والدتَـك . . .علمتُ أنها مريضة !

فتضاحك الفتى فى هُزُؤٍ وسخرية ، وقال :

حقًّا إن قلبكِ مملوءٌ بالخير . . . نحن فى غِنًى عن خدماتك !

فبرَقَتْ عينُ الفتاةِ ، وقالت :

أيَّ شأن لك بخدماتى ؟ إنى أحضُرُ من أجل والدتك ، وقد طلب منى والدك أن أصعَد إليها . . . دَعْنِى وشأنى ، وافرُغْ أنتَ لمسائلك التى تشغَل بالك !

— أىَّ مسائلَ تقصدين ؟

فاندفعتْ صائحة :

سَلْ صاحبَتَك «أمَّ حسن»...انظر ماذا كنتَ تصنع معها منذ هنيهة!

فقهقه الفتى مواصلا العَبَثَ بسلسلة المفاتيح ، وقال :

« أم حسن » ... إنها سيدةٌ ولا كالسيدات !

فاشتدّ اهتياجُ الفتاةِ ، وهى تقول :

أيَّةُ سيدة هذه العجوزُ الشوهاء التى تلاحِقُ الشُّبَّان ؟

— بل إنهـا سيدة تعرف الذوق ، وتحسن الأدب ، وتقدِّر مَقاما[redacted] . . .

— وهل لهذه المرأةِ مقَام ؟

— عجيبٌ أمرك ... أجئتِ الآن لتناقِشينى فى شأنِ « أم حسن » ؟

— قلتُ لكَ جئتُ لألْقَى والدتَكَ، فافسَحْ لى .

— لا أسمحُ لفتاةٍ مثلِكِ أن تطأَ عَتَبَةَ الباب ...

— ما ذا كان منى حتى تحرِّمَ علىَّ الدخول ؟

— هل نسيتِ إساءتكِ إلىّ ؟

— وهل أسأتُ إليكَ ؟ إنى لا أسيء إلى أحد !

— أتنكِرين ما جرَى منكِ ؟

— أنتَ الذى ضايقتَنى .

— و إذا كررتُ معكِ ما صنعتُ بالأمس ؟ . . .

— إذن فلا أُحجم عن حماية نفسى .

— اغرُبِى عن وجهى .

— ليس هذا بيتَكَ !

وهَمَّتْ الفتاةُ باقتحام الباب ، فأمسكَ بها يحاول إقصاءها ، وهى تعالج التفلُّتَ منه بادئَ بدء ، فإذا هو يضبِطُها بين ذراعيه ، و إذا بهما كأنهما يلتحمان . . .

ومضتْ على ذلك فترةُ صمت ، لا تدرى :

أفترةُ عِرَاكٍ هى ؟ أم موقفُ عِناق ؟ !

ووجدتْ الفتاة نفسَها قد أجهشَتْ بالبكاء ، وأخذت تصيح قائلة :

لا تفخَرْ بالتغلُّب على فتاةٍ مثلى . . . أُترُكْنِى !

— لن أترُكَكِ حتى أَرُوضَك وأُخْضِعَك أيتها الشَّرِسَة !

واختلجتْ الفتاةُ بين يديه ، تريد الإنطلاقَ ، فشَدَّ عليها وعَنُفَ بها لَكْزاً ووَكْزاً ، فخارتْ عزيمةُ الفتاة ، ولم تَعُدْ تدفعُه عنها ، بل لقد جعلتْ تتشبَّثُ بكتفيه ، كأنها تخشَى أن يُفْلِتَ من بين يديها !

وكَفَّ الفتى عن اللَّكْز والوَكْز ، وما برحتْ الفتاةُ متشبثةً به تنتحب ، فأخذ برأسها يرنو إليها ، فاستجابتْ له عيناها ، وتلاقتْ النظرات ، وما هى إلاَّ أن انهال عليها الفتى ضَمًّا وتقبيلا . . .

جنازة حارّة

تقدَّمَ « بَشِير أغا » يَهْدِى الطبيبَ إلى مضجَع الخادم المريض « مصطفى حسن » ، وما زال يتعرَّج معه فى طوايا الدِّهْلِيز ، حتى أوفَى به على حجرة مُغْبَرَّة تتناثر فيها القاذِر ، يتسلل إليها ضوء الشمس مهزولا من كُوَّة ضَيِّقَة فى أعلى الحائط . فأما أثاثُها فليس إلا حُطاماً يُفْصِحُ عن قسوة الأيام . وكان أبرزَ ما حوَتْ الحجرةُ من أثاث عتيق خِزانةٌ كالحة نَخِرَة لا يناسِبُ مظهرُها ما طُوِيَتْ عليه جوانحُها من مال ومتاع . . .

لقد كان « مصطفى حسن » شَحِيحَ اليد ، صَبُوراً على الِحرمان ، ما إن يقع فى حَوْزَتِهِ قَدْر من المال ، أو شىء من ضروب المتاع ، إلا أودعه خِزانتَه الأمينة ، وراضَ نفسَه على حراستِه لا يمسُّه بسوء .

أقبل الطبيبُ على المريض يَجُسُّ نبْضَه ، ويكشف عن صدره ، ويتسمَّع إلى شهِيقه وزفيره ، وما أسرعَ أن سَجَّاه ، وأخذ بيد

« بشير أغا » ، فلما غادر البابَ أَنْهَى إليه أن المريضَ قد حان حَيْنُه ، وأنه لم يَبْقَ له فى هذه الدنيا الفانية إلا ساعتان .

وما كاد الطبيبُ يبارِحُ الدار ، حتى سارع « بَشِير أغا » إلى الطبقة العليا من القصر ، لِيَلْقَى مولاتَه ، وهو يُعَانِي جهداً كبيراً فى حَثِّ خطاه ، إذ كان بَدِيناً تَخَاله غِرارةً قد حُشِيَتْ من لحم وشحم . فألفَى السيدة تهتَزّ ، وهى على سَجَّادة الصلاة ، تُرَتِّل ما تيسَّر من كتاب الله ، و بين يديها مُقْرِئَتُها « الشيخة حفيظة » مُصْغِية إلى التلاوة ، تراجعُها فى أحكام التجويد من مَدّ وغُنَّة و إدغام . . .

وإذ شَعَرَتْ رَبَّةُ القصر بِمَقْدَمِ «الأغا» أزاحتْ نَظَّارتها الذهبية عن أنفها ، ورفعت عن المُصْحَفِ رأسَهَا ، وقالت مستفسرة :

هل جاء الطبيب ؟

فأجابها الرجل ، مبهورَ الأنفاس : لقد حضَر ، وانصرف . . .

فسألَتْه : ماذا قال ؟

فأخذ يجفِّف ما تفصَّدَ من عرقه ، ويحاول أن يَضْبِطَ أنفاسَه المكروبة . ثم قال حزين اللهجة ، ناكسَ الرأس : أبقَى الله حياة مولاتى !

فعلا صوتُ السيدة بقولها فى اهتياج : أمات ؟

فأجابها « الأغا » : إنه يُسْلِم الرُّوحَ !

فطَفَرَتْ من عين رَبّة القصر عَبرة كفكفَتْها بمنديلها ، وهي تقول : إنّا لله و إنا إليه راجعون !

فتبعتْها « الشيخة حفيظة » تَجْهَر بصوتها الأجَشّ :

الفاتحة لِرُوحِكَ يا « مصطفى حسن » .

واشترك الثلاثة يقرءون الفاتحة في ضراعة وتخشّع ، ثم نظر « بشير أغا » في ساعته ، فتبيَّنَ أنها العاشرة ، فناجَى نفسَه بقوله :

سيموت « مصطفى حسن » في الساعة الثانيةَ عشرةَ تماماً . . . حين ينطلقُ مِدْفَعُ الظُّهر !

وعاد يترجَّح ، مقتلعاً قدميه إلى حجرة المريض ، فاتخذ مجلسَه على كرسيٍّ بالباب ، وجلس يَخْفُرُ الحجرة ، ويَحْمِي خِزانتها من يد السَّطْو والعبث .

وحانتْ منه نظرة إلى سرير المريض ، فوجده قد أخذتْه غيبوبة ، فهمهم يقول : الدَّوام لله يا « مصطفى حسن » !

وانساقت به الذِّكْرَيَاتُ تعرِضُ له حياة ذلك المريض منذ كان صبيًّا جَلَبُه المرحوم « الباشا » رَبُّ القصر ، وعُنِيَ بتربيته ، واتخذه خادِماً لشأنه الخاصّ ، فنزل من سيده منزِلا حسناً عَظُمَ به جاهُه ، وقويَتْ كلمتُه ... فلما قضَى « الباشا » نَحْبَه تحدرتْ به الحال ، وتعاورتْه العلل ، فتهاوَى من

كرسيِّه الرفيع ، حتى أصبح فى القصر ممن يُرْزَقُون لوجه الله !

وسَرعانَ ما علمتْ حاشية القصر بنبإ المريض الذى يُسْلِمُ الرُّوح . . . فتقاطر الخَدَمُ والحَشَم من مختلِفِ الأرجاء ، يتبيَّنون جَلِيَّةَ الخبر ، فاعترضَهم « بشير أغا » راصداً للباب ، يضرِب بعصاه الأرض ، إرهاباً لمن تُحَدِّثُه نفسُه بالِاقتراب . فجعل الخدم يتدانَوْنَ من « الأغا » فى خَشْيَة ، وهم يسألونه فى تشوُّف :

هل مات « مصطفى حسن » ؟

فكان يجيبهم فى إباء وترفّع : إنه يُسْلِمُ الرُّوحَ !

وأخيراً نَمَى الخبر إلى «عمّ مدبولى» البستانىّ ، وهو شيخ علتْ به السنّ ، لا تترك السُّبْحَةَ يدُه ، ولا فتورَ لثغره عن التمتمة بالأدعية والِابتهالات . فجاء إلى الحجرة يتعرَّف ويستطلع ، وسَوَّى له مكاناً على أديمِ الأرض ، بجوار كرسىِّ « الأغا » ، وجلس القُرْفُصَاءَ . . . وما أسرع أن اهتزَّ منخرِطاً فى أدعيته وتسبيحاته !

وكان « الأغا » يطمئن إلى صُحْبَة ذلك الشيخ ، ويأنَسُ بمجاذبته الحديث ، فلم يَضِقْ بمقدَمِه عليه الساعةَ ، بل لقد أمال إليه رأسَه يقول فى همس : سيموت « مصطفى حسن » بعد قليل . . . تُرَى ماذا نفعلُ بِتَرِكَتِه ؟ ألا يُحْسِن أن نوزِّعَها على الخدم بالعدل والإنصاف ؟

فما إن سمع الشيخُ كلمة « التَّرِكَة » حتى التمعتْ عينه ، وأخذ يُخَلِّلُ لحيتَه بأصابعه ، وقال مُسْبِلًا جفنَيْه :

افعَلْ ما تراه خيراً يا سيدى . . .

— سأستخاص لك حِذَاءً جديداً ، وجِلْبَاباً قَشِيباً ، ودِثَاراً من الصُّوف . . .

وثَمَّةَ همهم الشيخُ يقول :

قلتُ لكَ افعلْ ما تراه خيراً يا سيدى . . . كلنا مطمئنون إلى عدالة حُكْمِكَ . . . ولكن لا تنسَ نصيبَكَ من التَّرِكَة !

— الحقُّ أنى لا مَطْمَعَ لى فى شىء . . . كلُّ ما أنا صانعُه أن آخُذَ صُرَّةَ النقود ، فأرفعَها إلى مولاتى بما فيها من قليل أو كثير ، لتتصرفَ فى شأنها كما تَهْوَى . . .

وترامَى هذا الحِوَارُ إلى سَمْع « محمدين » رئيسِ الخدم ، فتدانَى منهما ، وقال « للأغا » فى لهجة استعطاف :

أرجو أن أكونَ فى ذاكرتك يا سيدى !

— وهل أنساكَ يا « محمدين » ؟ إنى مختصُّك بما فى حَوْزَةِ « مصطفى حسن » من الخِفَافِ الحُمْر ، فقد كان وَلُوعاً بها ، يحسن انتقاءها ، وعنده منها عَدَدٌ جَمّ . . .

فصاح « محمدين » وقد انتفختْ وَجْنتاه ، وارتعشتْ شفتاه :

أطال الله بقاءك . . . ولكن ألاَ يكون المُطْرَفُ الجديدُ من نصيبي ؟

— وهذا أيضاً . . . لا أَحْرِمُكَ إياه ، ما دمتَ فيه راغبا .

فأهوَى الرجل برأسِهِ على كَتِفِ « الأغا » فقبّلها قُبلة انشراح ، واعتراف بالجميل . . . وانصرف رئيس الخدم عَجْلَانَ ، وَثّابَ الخطَا . . .

فما أسرع أن أقبل بعده « عبد القوى » السَّقّاء ، يقول مهتاجَ النبرات :

لقد أديتُ للمرحوم أجلَّ الخدمات . . . أليس لى فى تَرِكَتِه حقّ ؟

فصاح «الأغا » يجيبه : ما أغباكَ ! أَتُرَانِى نَسِيتُك ؟ !

فاطمأنتْ نفس الرجل ، وقرّت بلابلُه ، وتكلم فى ملاطفة وتَمْلِيق :

سيدى « الأغا » حفظه الله يعلم أنى قَنُوع . يرضينى أىّ شىء . . . لا أرجو إلا بعضَ التوافه . . . فأولا : الحذاء الأسود الذى كان للمرحوم « الباشا » من قَبْلُ ، ولم يلبَسْه « مصطفى حسن » حتى اليوم . . . وثانيا : الطربوش الجديد الذى اشتراه « مصطفى حسن » للعيد الماضى

ولم يضعه على رأسِه بعدُ . وثالثاً : القُطْنِيَّة المُعصْفَرة التى بقيتْ مَصُونَةً لم تمسَسْها يَدُ الخياط ! . . . ورابعاً . . .

وهنا تحرك الشيخ البستانىّ ، وهو فى جِلْسَة القُرْفُصَاءِ ، وأمسك عن أدعيته ومناجياته ، وثار صوتُه مغضَباً يقول :

أنتَ لا تريد أن تتركَ لسواكَ شيئاً ...دعِ الأمرَ لحضرة «الأغا» فهو يوزِّع الأشياء بالسَّوِيَّة والحكمة . . . الخدَم فى القصر كثير . . . أين نصيبُ القارئ ؟ أين ما يأخذُه الطاهى ؟ أين ما يناله البوَّاب ؟

وفى هذه اللحظه نَجَمَ صوت المريض متداعياً يحاول أن يشقَّ طريقه إلى البـاب ، كأنه صوت ينبعث من قبر . . . فأرهف الجمعُ السمعَ ، فإذا هو « مصطفى حسن » ينـادى ، فنهض « الأغا » يجفف عرقه ، وغمغم : لقد دنتْ الساعة الفاصلة . . . الرجل يُسْلِمُ آخرَ الأنفاس !

واستدار « الأغا » يزْحَم البابَ بجِرْمِه الضخم ، ودخل يقفو أثرَه بعض خُدَّام القصر وحاشيته ، فأحاطوا بمضجع المريض المحتَضَر ، فَنَدَّتْ عنه اختلاجة طارئة ، وأمسك بيد « بشير أغا » وهو يضغَط عليها جُهْدَ ما يستطيع ، ثم قال متقطع الأنفـاس : ماذا قال الطبيب ؟ ماذا فى الأمر ؟ سمعتُ حديثاً فى شأن ترِكَتى !

فنـكَّسَ « الأغا » رأسَه هُنَيْهة ، وهو يربِّتُ كَتِفَ المريض ،

ويَلُوكُ بين شِدقيه كلماتٍ فى غير إبانة ، فامتُقِــعَ وَجْهُ « مصطفى حسن » وانتظمتْ جسمَه الرِّعْدَة ، وأدركته نَوْبَةُ سُعال وشَهِيق أسلمته إلى غيبوبة شاملة !

ولم يبقَ شكٌ عند أحدٍ من الجمع فى أن المريضَ قَضَى ، فأخذتْهم غاشيةٌ من الرهبة ، عَقَدَتْ ألسنتَهم جميعا ...

وبعد فترة شَخَصَتْ أبصارهُم إلى « الأغا » فَفَطَنَ إلى ما يَعْنُون ، فدنا من الشيخ البستانىّ ، وأسرَّ إليه كلمات ، فاقترب الرجل مُرْعَشَ الأصابع ، يبحثُ تحتَ وِسادَةِ المريض عن مفتاح الخِزانة .

وبينا هو يتحسَّس ، انفرجتْ أجفان المريض ، فبُهِتَ الشيخُ أولَ وهلة ، ثم ما لبث أن قال فى وداعة وتحنُّن : هاتِ المفتاحَ يا « مصطفى » أُخْرِجْ لك الدِّثارَ الصُّوفىّ ، فإنى أجدُك مَقْرُوراً .

فاختلجتْ شفتا المريض بقوله :

دَعُوا الدِّثَارَ مَصُوناً ... لا ضرورةَ لِابتذالِه ... سأحتاجُ إليه فى قابلِ الأيام !

وبدا وجههُ متقلِّصاً ، كأنه فى إجهاشةِ بُكاء ، وشَدَّ على يدِ الشيخ البستانىّ ، وحَدَقتاه تدوران ، وصوتُهُ يخونُه فى إبلاغِ قوله :

لا أريدُ أن أموتَ . . . صحتى تتحسَّن ... أؤكد لك أن صحَّتى تتحسَّن ...

واشتعلتْ فى جُثمانِه نَشْطة وحَمِيَّة ، فعالج أن يستندَ إلى شيخ البستان ليجلسَ ، وهو يقول : أريد أن أتركَ الفِراش . . . أريد أن أتمشَّى فى الحجرة خطوات . . . أشعر بأنى أستطيع القيام !

وفى هـذه اللحظه اختنَقَ صوتُه ، وسقطَ على الوِسادةِ رأسُه ، وجعل صدرُه يعلو ويهبط ، وأوصاله تتشنَّج . . . ثم انفتح فمه يلتمسُ الهواء فى إلحاح ، وانتظمتْه انتفاضة كخَطفة البرق فاضتْ بها الرُّوح .

فأقبل الشيخ البستانىّ يبسُط عليه غِطاءه ، ثم دسَّ أناملَه فى طوايا الوِسادة ، فاستخرج المفتاح ، ومَدَّ به يدَه إلى « الأغا » فى تُؤَدةٍ وخشوع .

وأصدر « الأغا » أمره فوراً بنقل الِخزَانةِ خارجَ الحجرة ، فتجمَّع الرجال يتقاسَمُونَ جوانبَها حملا ونقلا ، ولـكنها أفلتَتْ من بين أيديهم ، فهوَتْ على الأرض متحطِّمة ، فانكشف فيهـا بعضُ ما حوتْ من ضروب المتاع . . . فمدَّ أحدُ الرِّفَاقِ يدَهُ خُلْسَةً يجتذب منها شيئاً ، فلمحه آخر ، فحذا حَذْوَه ، وما هى إلا أن ترامَى الجْمع على الِخزانة يتخاطفون ما فيها . وحَمِيَتْ معركة التناهُب ، فاختلط الرِّفَاقُ بعضُهم

ببعض يتنافسون ، وتشابكت الأيدى تتدافع وتتنازع ، وتعالت الأصواتُ تحمل ألفاظ المشاتمة والسِّباب .

ووقع فى رُوعِ « الأغا » أن صُرَّةَ النقود فى خطر ، فانبرى يرسل من حلقه صيحة الإمْرَة ، راغباً إلى الجمْع فى أن يَكُفُّوا عن السلب والاغتصاب ، فلم يُعِرْهُ أحد من الرفاق جانبَ انتباه . . . وهل أبقتْ الفريسةُ لهذه الذئاب الجِياعِ سَمْعاً يَعِى ؟ لقد كان الرِّفاق فى شُغُل بما بين أيديهم مِن غَنِيمَةٍ مستباحَة، مَنْ ظَفِرَ منها بشىء فهو له مَتاع !

وجُنَّ جنون « الأغا » فلم يجد مندوحةً عن الإقدام والاقتحام .

فهجم مستبسِلاً مستيئسا يخوضُ المعركة بكل ماوهبَتْه الطبيعةُ من جوارحَ، تارةً يَزْحَمُ بِمَنْكِبَيْهِ، وطوراً يدفع بساعديه ، ومرة يَكْسَع برجليه ، حتى إنه لم يُعْفِ أسنانَه من أداء واجبها فى هذا العِراك !

وتاح له بهذه الوسائل أن يَشُقَّ طريقه إلى الخزانة، فلما اقترب منها ترامَى عليها بجُسْمَانِه الضخم ، يحجُبها عن الجمع ، وشرع يُعْمِلُ أصابعه فى جنباتها يَنْبُشُ ويتفقدُ ، فلما عَثَرَ على ضالَّتِه المنشودة ، أسرع إليها يدسُّها فى جيبه ، ونهض عن الخزانة وقد خفَّتْ حِدَّته ، و بطلت صَوْلَتُه، وانصرف يَمُطُّ شفتيه للرفاق ، وينعَى عليهم ما طُبِعَتْ عليه نفوسُهم من ضعف الوفاء ، وقلة المروءة ، وسُوءِ الأخلاق !

وصَـعِد « الأغا » إلى طبقـة القصر العليا ، يُنهِى إلى مولاته نبأ الوفاة ، ويسألها ما يصنع فى شأن الجِنازَةِ ، فترحمتْ السيدةُ على الفقيد ، وناولتْ « الأغا » قدراً من المال للإنفاقِ منه فى هذا الشأن ، وأوصتْه بالعناية والِاهتمام . . .

وعاد « الأغا » إلى حجرته ، فأحكم إغلاقَ بابِها وراءه ، وبسط الصُّرَّةَ أمامه ، فتناثرتْ النقود الذهبية متوهِّجَةً رَنَّانة ، فطفِقَ يتوسَّمُها ويعُدُّها ، فإذا هى مِائة كاملة ، فأقبل يكرِّرُ عَدَّها مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ ، وهو واجفُ القلب من فرحة واغتباط . . .

وفى أصِيـل ذلك اليوم خرجتْ من باب القصر جِنازَة « مصطفى حسن » مكتملةً علائم الأُبَّهَـة ، مُشعِرَةً بعظِيم الإعزاز ، يتقدمها حَمَلة القماقم والمباخر ، وهم رَتَلٌ منظَّم فى سِمْطَيْنِ كأنهما صَفَّان من الجند ... ومن خلفهم النَّعْش تُجَلِّلُهُ المطارف المزَخْرَفة ، وهو يتمايل على الأكتاف ، كأنه يتخطَّر فى خُيَلاء ... ومن حوله القرّاء تنطلق من حناجرهم الأدعيـة والصلوات ، كأنهم يَزُفُّونَ الراحلَ إلى مقرِّهِ الأخير !

وتَصَدَّر المشيِّعين خُدَّامُ القصر ، على رأسهم « الأغا » وهو يسير

وَزِينَ الُخطَا ، رزينَ السمت ، يتوكأ على عصاه ، كأنما هو قائد يَقْفُوهُ الجيشُ فى ساحةِ عَرْضٍ مَهيب . . .

وقد أبَى خُدَّام القصر إلا أن يُشَيِّعوا رفيقَهم الراحل بما يليق ، تكريماً له فى يوم وَدَاعِه الأبدِيِّ ، فلم يجدوا خيراً من ملابِسه وأشيائه ومقتَنيَاتِه يرتدونها وَيتَحَلَّوْن بها . فظهرت الجنازة بهيَّةَ الشارة ، أنيقةَ المَظْهَرَ ، كأنها عروس يُحْمَلُ معها جِهَازُها حينَ الزِّفَاف !

... طريق إلى الحب

« عباس فريد » الطالب بالمدرسة الخديوية ، أو « عباس بك فريد » ، نجل المرحوم « عبد السلام باشا فريد » فتى فى السادسةَ عشرةَ ، رزينُ السمت ، وديعُ الأخلاق ، لا عهدَ له بعدُ بمغامرات الشباب ، مغامراتِ الحبِّ والنساء . . .

وكان لأسرة الفتى مَغْنًى أنيق فى « رمْل الإسكندرية » تقضى فيه فترةَ الِاصطياف كلَّ عام . فما إن فرَغ الفتى من أيام الِامتحان ، واختتم عامَه الدراسىّ ، حتى شَدَّ رِحاله إلى مَغْنَى الأسرة فى الثَّغْر ، يستوعب حظَّه من مُتَعِ الشاطىء ، فيستحِمُّ ويتنزَّه ، ويرتاد مَلْهَى « الكازينو » ، ويختلف إلى دُورِ السينما والمسارح ، يشارك رِفاقه من الفِتْيان ما ينعَمُونَ به من فنون المسَرّات .

أطلَّ « عباس » من نافذة حجرته المشرفة على البحر ، وعلتْ وجهَه إشراقة ، وهو يرْمِى بطَرْفه فيما حوله ، مرحِّباً بتلك الحياة الأنيسة التى طال إليها تحْنانُه طوالَ أشهرِ الشتاء .

واتخذ الفَتَى مجلسَه على مَقْرَبَةٍ من النافذة ، وفى يمينه قِصَّة يطلب السَّلْوَةَ بقراءتها ، ولكنه ما كاد يخطو فيها بضعَ صفحات ، حتى اختلطتْ عليه مشاهدها ، فألقَى بها فى مَلَل ، وبَقِيَ يفكِّر فيما أصابه اليومَ من فوز حين خَرَجَ إلى البحر مع أصحابه يتسابقون بالقوارب ، فلم يستطيعوا اللَّحَاقَ به ، وظل هو السابقَ الأول .

وفيما هو يُسَرِّح بصره فى أرجاء البحر المهتاج ، عرضتْ منه التفاتة إلى حديقة الدار المجاورة ، فألفَى بنتَ صاحب الدار تجوسُ خلالها ، وهى فتاة أجنبيَّة اعتاد « عباس » أن يراها حِيناً بعد حِين ، كما يرى أثاثَ المنزل ، أو أشجارَ الحديقة . وما كان ليشغَلَهُ منها شىء ، فإنه مزدَحِم الخاطر بما يزاول من رياضات ينافِسُ فيها الرِّفاق .

وبينا هو على هـذه الحال ، إذ انفرجَ البابُ فجأة ، وبدتْ منه والدةُ الفتى وفى عينها شَرَر ، وعلى وجهها غَبَرَةُ الغضب .

فابتدرتْه تقول فى لهجة المحنَق :

طالما نَهَيْتُكَ أن تَمُدَّ عينيك إلى النساء . . .طالما رغبتُ إليك فى أن تكونَ مؤدَّباً مهذَّبَ الأخلاق . . . إلى متى تظلُّ فى غَوَايتك ؟

فدَهِش الفتى ، وأنكر من أمِّه أن تتعمَّدَه بهذا التعنيف وسألها :

أىَّ نساء تَعْنِين ؟ أقسم بالله العظيم إنه لم يكن من ذلك شىء !

— كذاب أنتَ !

وعَزَّ عَلى الفتى أن يُتَّهَمَ ظلما ، وألا تصدِّقَه أمُّه فيما ينفيه من هذا الاتهام، فكستْ وجهَه غِشاوة من كآبة واغتمام .

فتدانتْ منه الأم ، وقد أدركها عليه بعضُ إشفاق ، قائلة له :

إنى أَبْغِى خيرَك يا «عباس» ... أريدكَ شابّا على خلق كريم ... اصْدُقْنِى . . . لقد كنتَ تبتسم لبنت الجيران . . . أليس كذلك ؟

فحدّق الفتى فى وجهها صائحاً :

لم أكنْ أبتسِمُ لأحد . . . لقد تذكرتُ شيئاً سَرَّنى فابتسمتُ !

فربّتت الأم كتفه فى ملاطفة ، وهى تقول :

أنصَح لك يا بُنَىَّ أن تتجنبَ هذه الفتاة !

— لا شأن لى بأحد . . .

— ذلك أملى فيك .

وانصرفتْ الأم من الحجرة ، بعد أن طبعتْ على جبين ابنها قُبْلَة حنان ... وابنُها يَتْبَعُها بنظرةٍ مِلؤُها التعجُّب ، وهو يهمهم :

سبحانَ الله العظيم !

وانتبه « عباس » من نومه فى رَوْنَقِ الصباح ، ناشطاً يريد أن

يَعْجَل إلى ظُلَّتِه على شاطئ البحر ، ليلقَى الرِّفاق ، ويقاسمهم مباهجَ الاِستحمام .

وفيما هو يتخطَّى عتبة الدار ، أخذتْ عينُه « بنتَ الجيران » تحمل لَفِيفَةَ حوتْ لَبُوسَ البحر ، فأسرع ماضيا عنها ، متجنِّباً مَرْآها ، وقد حضره ما دار بينه وبين أمِّه من مُسَاجَلَةٍ فى شأن هذه الفتاة .

وفى عصر يوم صادف « عباس » صديقَه « مرادا » فى « الكازينو » فترافقَا يتحدّثان . وما إن خَطَوَا بعض خطوات حتى مَرَّ بهما سِرْب من الصبايا يتضاحَكْنَ ، فنظر « مراد » إلى إحداهن ، وأسرع إليها يحيِّيها ويطارحُها الكلامَ فى بِشر وإيناس . ورجع إلى صديقه ، فألفاه واقفا تُجَاهَ البحر ، يَلُوحُ عليه التزمُّت والجِدُّ ، فقال له : كان بودى أن أُعَرِّفَك بصاحبتى !

— لا شأنَ لى بصاحبتك .

— ولماذا ؟ إنها فتاة لطيفة . . .

— دَعْنى من سخافتك !

فعجب « مراد » من قوله ، وَحدَّق فيه يقول :

ما زلتَ طفلا يا « عباس » !

وبغتةً بدتْ « بنتُ الجيران » على مقرَبة من الرفيقين ، وهى

تتهادَى فى لُمَّةٍ من الصُّوَيحبات . فشدَّ « مراد » على يدِ رفيقه ، قائلا له : هذه جارتُك . . . ما أملحَها من فتــاة . . . وَدِدْتُ لو تَمَّ بيننا تعارُف !

فلوى « عباس » رأسه ، حتى لا تقع على الفتــاة عينُه ، وغمغم يقول لـ« مراد » : بربِّك اتركْ هذه الفتاةَ وشأنَها !

وسار حَثِيثاً ، يجرُّ رفيقَه جرًّا . . .

ولمـا أَوَى « عباس » إلى بيته فى المَسَاء ، أنكرَ من أمّه جَهَامَةً توضحتْ على مُحَيَّاها ، لم يدرِ لها سببا . . . فلما أصابَ عَشَاءه ، وهَمَّ أن يمضِيَ إلى حجرته ، رغبتْ إليــه أمه فى أن يَتْبَعَها إلى حجرتها الخاصَّة بها ، فانقادَ لها . وما كادت الحجرةُ تحتويهما حتى أسرعتْ الأم تقول : ما برحْتَ على هواكَ يا«عباس» . . . لا تُلْقِي لنصحى بالا !

— كيف ؟

— لقد حذَّرتُكَ النظرَ إلى بنت الجيران .

— وماذا كان منى ؟

— لقِيتَها صبحاً ، فبادلتَها النظرَ والِابتسام .

فصاح الفتى : أنا ما نظرتُ ولا ابتسمتُ !

فقاطعتْه الأمُّ تتابع قولها : وتلاقيتُما عصراً ، وأنتَ فى صحبة « مراد »

تَذْرَعان « الـكازينو » ذهاباً وجَيْئة . . . فـكان من تحيَّتك لهـا واهتمامِكَ بها ما كان فى الصَّباح !

فرفع الفتى صوتَه قائلا : لم يكن الأمرُ على هذا النحو .

وشرع « عباس » يقصُّ على أمه فى تُؤَدَةٍ ما جرَى له فى يومه ، وما كان من تجافِيه عن النظر إلى الفتاة ، فلم تمهلْه الأم ليستكملَ روايتَه، ولـكنها عاجلته بقولها فى لهجة صارمة : هـذه آخر مرة أحذِّرك فيهـا وأنذرك . . . أترضَى لنفسك أن تتعلقَ بفتاة لا هى من جنسِك ، ولا هى لائقةٌ بك ؟ لعمرى لو فعَلْتَ لذهبَ مستقبلُك أدراجَ الرياح !

— عجيبٌ ما تقولين يا أماه . . . لا تَعلُّقَ لى بهـذه الفتاة . . . لا تعلُّقَ لى بأحدٍ على الإطلاق !

وانفتل من الحجرة غضبانَ أَسِفاً ، يفـكِّر : كيف تَسَنَّى لأمه أن تعرِفَ من أمره ما عرفتْ ؟ وسرعان ما أُلْقِيَ فى رُوعِه أن أختَه الصغرى هى التى دبجتْ هذه الوِشاية وحملتْها إلى أمه لتنتقمَ منه ، فكثيراً ما ضاقتْ بما له عليها من سلطان ، وكثيراً ما تبرمتْ بما يُلزِمُها به من أمر ونَهْى ، فأقسم بينه و بين نفسه ليُحْسِنَنَّ تأديبها، وليبالِغَنَّ فى عقابها على هذه الفَعْلة الشنعاء .

وصبحاً خرج « عباس » إلى الشُّرفة ، يَتَملَّى مَنْظَرَ البحر ، فألفَى

«الستّ إقبال»...ضيفةَ البيت ، تلك التى تؤنسُ أمَّه بحديثها العَذْب وما يتخلله من دُعابات وأفاكيه ، فقد كانتْ فى عصر شبابها الغارب سَبَّاقةً فى مغامرات الحب والهيام . . . وما كاد يراها « عباس » حتى أقبل عليها قائلا : ماذا تفعلين يا « ست إقبال » ؟

— أَرْتُقُ ثوبى المهلهل . . . إن جيبى أصبح كقلبى خالياً . . . فمن أين لى بثوبٍ جديد ؟

ثم جعلتْ تطيل النظرَ إليه، وعلى فمها ابتسام مُريب .

فقال لها فى تعجُّب : ما لَكِ تنظرين إلىَّ على هذا النحو ؟

— حقًّا لقد تغيرتَ يا « عباس » !

— تغيّرتُ ؟

— أجل ، كَبرتَ . . . ولكن ما بالُ وجهكَ يكسوه شُحوب ؟ ومالكَ تنطوى على نفسك ، كأنك فى حيرَة وقَلَق ؟

ثم رنّت ضحكتُها النِّسْوية العابِثة ، وهى تقول :

إن قلبك كجيبك ملآن . . . والحب كالذهب يشغل البال !

فحدَّق فيها « عباس » تَعْرُوه دهشة ، وما لبثت « الست إقبال » أن ألقتْ ما كان فى يدِها على المنضدة ، ونهضت تأخذ بكتفِ الفتى ، وتهمس فى أُذنه :

تَذْرَعان « الـكازينو » ذهاباً وجَيْئَة . . . فـكان من تحيّتك لهـا واهتمامِكَ بها ما كان فى الصَّباح !

فرفع الفتى صوتَه قائلا : لم يكن الأمرُ على هذا النحو .

وشرع « عباس » يقصُّ على أمه فى تُؤَدَةٍ ما جرَى له فى يومه ، وما كان من تجافِيه عن النظر إلى الفتاة ، فلم تمهلْه الأم ليستكملَ روايتَه ، ولـكنها عاجلتْه بقولها فى لهجة صارمة : هـذه آخر مرة أحذِّركَ فيهـا وأنذرك . . . أترضَى لنفسك أن تتعلقَ بفتاة لا هى من جنسِك ، ولا هى لائقةٌ بك ؟ لعمرى لو فعَلْتَ لذهبَ مستقبلُك أدراجَ الرياح !

— عجيبٌ ما تقولين يا أماه . . . لا تعلُّقَ لى بهـذه الفتاة . . . لا تعلُّقَ لى بأحدٍ على الإطلاق !

وانفتل من الحجرة غضبانَ أَسِفاً ، يفـكِّر : كيف تَسَنَّى لأمه أن تعرِفَ من أمره ما عرفتْ ؟ وسرعان ما أُلْقِيَ فى رُوعِه أن أختَه الصغرى هى التى دبجتْ هذه الوِشاية وحملتْها إلى أمه لتنتقمَ منه ، فكثيراً ما ضاقتْ بما له عليها من سلطان ، وكثيراً ما تبرمتْ بما يُلْزِمُها به من أمر ونَهْى ، فأقسم بينه و بين نفسه ليُحْسِنَنَّ تأديبها ، وليبالِغَنَّ فى عقابها على هذه الفَعْلة الشنعاء .

وصبحاً خرج « عباس » إلى الشُّرفة ، يَتَمَلَّى مَنْظَرَ البحر ، فألفَى

«الستّ إقبال»...ضيفةَ البيت ، تلك التى تؤنسُ أمَّه بحديثها العَذْب وما يتخلله من دُعابات وأفاكيه ، فقد كانتْ فى عصر شبابها الغارب سَبَّاقةً فى مغامرات الحب والهيام . . . وما كاد يراها « عباس » حتى أقبل عليها قائلا : ماذا تفعلين يا « ست إقبال » ؟

— أَرْتُقُ ثوبى المهلهل . . . إن جيبى أصبح كقلبى خالياً . . . فمن أين لى بثوبٍ جديد ؟

ثم جعلتْ تطيل النظرَ إليه، وعلى فمها ابتسام مُريب .

فقال لها فى تعجُّب : ما لَكِ تنظرين إلىّ على هذا النحو ؟

— حقًّا لقد تغيرتَ يا « عباس » !

— تغيّرتُ ؟

— أجل ، كَبرتَ . . . ولكن ما بالُ وجهكَ يكسوه شُحوب ؟ ومالكَ تنطوى على نفسك ، كأنك فى حيرَة وقَلَق ؟

ثم رنّت ضحكتُها النِّسْوية العابِثة ، وهى تقول :

إن قلبك كجيبك ملآن . . . والحب كالذهب يشغل البال !

فحدّق فيها « عباس » تعرُوه دهشة ، وما لبثت « الست إقبال » أن ألقتْ ما كان فى يدِها على المنضدة ، ونهضت تأخذ بكتفِ الفتى ، وتهمس فى أُذنه :

لا تَثْرِيبَ عليك . . . كل فتى فى مثلِ سنِّك يَعْشَق . . .
ما أحلى الحبَّ فى مَيْعة الشاب !

وحانت منها التفاتة إلى الحديقة المجاورة للدار ، فوقع بصرُها على « بنت الجيران » تَجُوسُ خلالَ الشجر ، فغمزت المرأة يد الفتى ، وهى تقول مهتاجة النبرات :

انظر . . انظر . . ما أحلاها . . . يابختك يا « عباس » !

فتضرَّجَ وجهُ الفتى ، وانتهرَ « الست إقبال » ، وغادر المكانَ مسرعَ الخطوات ، فأَوَى إلى حجرته ، وقد أحسَّ بخواطره تتزاحم ، يلوح بينَها طيفُ الفتاة ، كأنما يتدانَى منه فى ملاطفة و إشراق .

و بينما كان الفتى بعد هَدْأَةٍ من الليـل يسير إلى مَرْقَدِه ، مرَّ فى طريقه بحجرة الخدم ، فاسترعَى انتباهَهُ همس يتناثر فيه اسمُهُ ، فوقف يتسمَّع ، فإذا بالخدَم يخوضون فى حديث عنـه مقرونٍ باسم « بنت الجيران » ، وهم يتكلمون فى نشوة و إعجاب . . . فلاحتْ على وجهه بسمةُ ارتياح ، ومضى خفيفَ الخطو يترنَّم ، وما هى إلا أن احتواه فراشُه يهنَأُ بأحلام عِذاب .

وفى الغداة استيقظ من نومه يفتح النافذة ، فتراءتْ له « بنت الجيران » فى شُرْفَةِ بيتها أمامه ، فلم يتراجَعْ ، بل ظل فى موقفه يتملَّاها

فإذا هما بغتةً يتطارحان النظر ، وما لبثا أن ابتسم كلاهمـــا لصاحبه فى رقَّة وتلطُّف . . . و بعد لحظات غادرتْ الفتاةُ الشرفة ، فترك « عباس » النافذةَ مترنحَ الأعطاف ، خفّاقَ الفؤاد .

وتواصلتْ الأيام ، فلم تبقَ شرفة أو نافذةٌ فى البيتين المتجاورَيْن إلا سجلتْ فى حَيْطَةٍ وحَذَر ألواناً من التحايا ، وفنوناً من البَسَمَات ، يتراسَلُ بها القلبان الطرُو بان !

وأحسَّ الخدَم أن الفتى ينسلُّ من حجرة فراشه فى جوف الليل ، فيسارقُ الخطا فى مساترة واحتراس ، وَوِجْهتُه حديقةُ الجيران . . .

مسطرة "مبروك افندى"

بارح التلميذُ « دعْبِس الكوميّ » منزله في رَوْنَق الصبح ، آخذاً سَمْتَه إلى حارة « كفر الطاعين » حيث تقع «مدرسة المكرُمَاتِ العالية » التى يتلقّى فيها تعليمه الابتدائى . ولما قارب دارَ المدرسة ألفَى رفاقَه منتشرين هنا وهنالك ، يتحدّثون ويتلاعبون ، انتظاراً لدقّات الناقوس .

واسترعَى انتباهَه لفيف منهم قد أحدَقوا بعربة « عم عُصْفور » بائع الحلوى وأدوات الكتابة ، فاندسَّ بينهم يتبيَّن ما يشترون ، وما لبث أن ابتاعَ من الرجل قطعة من « الشكولاته » حَشَا بها فمه على الفور .

وراعه مما احتوتْه العربة طائفة من أقلام المِدَاد زاهيةُ الألوان ، ساطعةُ اللمعان . . . فرنا إليها فى شَغَف ، ولم يستطِعْ مغالبةَ نفسه ، وهى تراوِدُه أن يظفرَ بواحد منها ، فأقبل على « عمِّ عُصْفور » يسأله ، وقد أشار إلى قلم وقع عليه اختياره : أَرِنِي هذا القلم . . .

— أتريد شراءه ؟

— سأنظر .

— إنه لا ينفعك . . . هو للمدرّسين وللتلاميذ الكِبار .

— دَعْنى أَرَهُ . . .

فانتزع الرجل هذا القلم المختارَ من بين الأقلام ، ودفع به إلى الصبىّ ، فأخذه منه يقلبه بين يديه مشبوبَ النفس ، وسرعان ما تذكَّر أن معلِّم الإملاء يحمل مثل هذا القلم ، عامراً بمداد أحمر . فالتمعتْ عيناه ، وخفق فؤادُه ، وضرب بيده فى جيبه يعدّ ما فيه من النقود ، فإذا هى بضعةُ قروش ، فهمهم قائلا : بكم هذا القلم يا « عم عصفور » ؟

— بثلاثين قرشاً . . .

فَبُهِتَ الصبىّ ، واهتزّ القلم فى يده ، ولم يجد بُدّا من أن يعيدَه إلى الرجل فى أسف وحسرة ، فعاجله البائع مستدرِكا يقول :

ولكنى من أجلك أبيعُكَ إياه بخمسةَ عَشَرَ قرشاً . . . بنصفِ ثمنه . . . أنتَ زَبُون حَسَنُ المعاملة !

فأخرج الغلام كل ما فى جيبه ، وجعل يُحْصِى قروشه ، فألفاها خمسة كاملة ، فألقَى بها إلى الرجل ، وهو يقول له :

هاكَ ما معى الآن ...وغداً أَنْقُدُكَ ما بَقِىَ .

— لا بأسَ يا سيّد « دعبس » . . . طَلَبُكَ مُجَاب .

— ولكن لا بدّ للقلم من مداد أحمر !

— إليك زجاجةً بقرش ، يبيعها غيرى بثلاثة قروش .

— شكراً لك يا « عم عصفور » . . . موعدُنا غداً إن شاء الله .

وانطلق الصبيُّ بالقلم وزجاجة المِداد ، يتواثبُ نحو المدرسة ، والدنيا لا تسع فرحتَه وابتهاجه .

وما كاد الصبيّ يأخذُ مكانَه من فصله ، حتى أعلن الناقوسُ ابتداءَ الدراسة ، فتوافد التلاميذُ على فصولهم ناشِطين ، فلم يستطع الصبيُّ إلا أن يُخْفِيَ القلمَ فى جيبه والزجاجةَ فى قِمَطْرِه ، تأهُّباً لِاستقبال الدروس .

على أنه لم تكد تَحِلُّ فترة الراحة بين الحصص ، فينصرفُ التلاميذ إلى فِناء المدرسة يَشْغَبُون ويلعبون ، حتى لزم هو كرسيَّه ، خالياً بنفسه . وأقبل على قلمه يَغْمُره بالمداد الأحمر .

وبينما هو كذلك ، إذ مَرَّ من جانب الفصل ضابطُ المدرسة ، فلمحه قابعاً فى ركنه ، فصاح به : ماذا يُبقيك هنا يا ولد ؟

فأسرع الصبيّ يخفى ما فى يده ، قائلا : لا شيء . . . سأخرج !

ولم يبرح الضابط مكانه ، حتى انجلى الصبيُّ عن فصله .

وفى فترة الغَداء ، عند الظهيرة ، تفرق التلاميذُ يتناولون الطعام ، فانتهز « دعبس الكومى » هذه الفرصةَ ، ولم يُنْفِقْ من وقته فى تناوُلِ طعامه إلا لحظاتٍ قلائل ، وأمضى بقيةَ الوقت قابعاً على كرسيِّه يُمتِعُ نفسه بإجراء القلم الجديد على الصفحاتِ البِيض ، يُبرْقشها بذلك المِداد الوردىِّ الزاهى .

وقُبَيْلَ استئناف الدروس ، مَرَّ عن كَثَبٍ منه أحدُ أقرانِه ، فقال له : أتعبَثُ بالكتابة ، وعليك أن تحفظَ جدولَ الضرب لتُمْتَحَنَ فيه اليومَ ؟ .

فأشرع الغلامُ عينيه ، وأجاب قرينه فى دهشة :

وهل موعدُ الامتحان اليومَ ؟

فقهقه الصبىُّ قائلا : أليس اليوم يومَ الأربعاء ؟ . . . يبدو أنك مشتاق إلى مِسْطَرَةِ « مبروك أفندى » !

— ما هذا المِزَاحُ الثقيل ؟ الِامتحانُ غداً .

— بل اليوم ... أَصْحُ من نومك !

واستبان لـ « دعبس » أنه كان غافلا ، وأن الِامتحان يَجْرِى اليومَ حقًّا ، فارتجفتْ أوصاله ، وتراءت له مِسْطرة معلِّم الحساب ، المعروفِ بالشدَّة فى العقاب !

فانبرى يقلِّب دفاتره بحثاً عن جـدول الضرب ، وهو مضطرب متفزِّع . . . ولما وجده أكبَّ عليه يحاول استذكاره ، ولـكنه ألفَى بصره يَزِيـغ ، وأحسَّ برأسه يدور .

ورَنَّ الجرس فى هذه اللحظة ، فارتفعتْ جَلَبَةُ التلاميذ فى تدافُعهم إلى الفصول ، وهم يردِّدون الأرقامَ فى أنفاسٍ متلاحقة .

وتجلَّى « مبروك افندى » على عتبة الفصل ، صائحاً فى عنف :

صَمْتاً يا مَلَاعِين !

فانقطع الصَّخَب ، وساد السـكون ، وتعلَّقت الأنفاس . . . فدخل المعلم كالنَّمِرِ المتخطِّر ، شاهراً فى يده مِسْطَرته التى ذاقَ التلاميذُ من سطوتها لَـذْعَ النار . . . وقد أزاح طربوشه إلى الخَلْف، فظهرت قُصَّتُه شَعْثاءَ مغبَرَّةً ، تزيده غِلْظةً ورهبة .

وما عَتَّمَ «مبروك أفندى» أن ابتدأ يمتَحِنُ الغلمان ، فسأل أحدهم:

٧ × ٩

فتلعثم المسئول ، فهجم عليه المعلم يقول له : ابسُطْ يدَكَ . . .

فقبضها الغلامُ خلفَ ظهره ، وهو يجمجم فى استرحام . ولـكن « مبروك أفندى » لم يَعْجِزْ عن بَسْطِ تلك اليد العَصِيَّة ، والانهيال عليها ضرباً بالمسطرة ، فكان وقْعُ الضربات يمازج نَشِيجَ الغلام

وصياحه ، ويؤلِّف لحناً مفزِّعاً يبعث الخشية فى أرجاء الفصل جميعاً .

وأحسَّ « دعبس الكومى » فى هذا الوقت بأن يدَه كأنما لَسَعَتْها عَقْرَب !

ونادى المعلم اسماً جديد ، وهو يقول : ٧ × ٩ . . . أَجِبْ !

فنطق التلميذ فى جرأة يجيبُ بقوله : ٧٩

فإذا المعلم فى خَطْفَةِ البرق ينتفض ، وإذا هو أمامَ التلميذ وجهاً لوجه ، يقول له : جيِّد جدّا . . . ستنال تسعاً وسبعينَ ضربة !

وجعل يكيل له الضرباتِ عَشْوَاءَ ، والتلميذ يتلوَّى ويَجْأَر . . .

وبينما كان ذلك يجرى فى ركن من الفصل ، كان « دعبس الكومى » يُمِرُّ يدَه على جبينه ، والعَرَق يرفَضُّ منه فى غزارة .

ومضى « مبروك أفندى » يتنقَّل بين أسماء التلاميذ ، ممتحناً إياهم فى نشاط وحماس ، وما هى إلا أن سمعَ « دعبسُ الكومى » اسمَه يَرِنُّ فى الفضاء ، فوقف مُرْعَشاً ، فصاح به المعلِّم يقول : ٦ × ٨

فَشَعَرَ الصبيُّ بأن لسانه قد اعْتُقِلَ ، وأن الأرضَ تَدُورُ به ، فأعاد المعلم سؤالَه فى صوت جَهِير : ٦ × ٨ ...انْطِقْ يا ولد .

فأخذتْه نَوْبَةُ إجهاش ، ولسانهُ يتعثَّر بهذه الكلمات :

والله العظيم يا أفندى نَسِيتُ أن آخُذَ جدولَ الضربِ معى أمسِ

لأحفظَه . . . والله العظيم يا أفندى سأحفظُه !

فأزهرتْ عينُ المعلم الغَيور ، ورفع يده بالمِسْطَرة لِيُهْوِىَ بها على التلميذ .

وهنا اهتزَّ الغلام فى موقفه اهتزازةً سقط على أَثَرِها قلمُه الجديد ، وما أسرع أن أدلَى المعلم بنظره يتبيَّنُ الأمر ، فبهرتْ عينُه لمعةَ القلم وهو يتوهَّج فى وَضَح النهار ، فانحنَى عليه يلتقطه ، وطفِق يتفحَّصُه وقد بدتْ عليه أَمارة الاِهتمام . . . على حينِ كان « دعبس الـكومى » يرتعدُ من فَرْطِ الخوف .

ورفع « مبروك أفندى » رأسَه عن القلم ، وهو يهمهم :

عرفتُ الآنَ ما ذا يُلهِيكَ عن حفظ جدول الضرب . . . هـذه الأقلام . . . بِدْعَةُ آخرِ الزمن !

وأراد الغلام أن يتكلم ، فاستعصَى عليه القول ، وهمَّ بأن يمُدَّ يدَه ليأخذَ قلمه من المعلم ، فارتفع صوت « مبروك أفندى » قائلا :

قَسَماً لا جزاءَ عندى لمن أجد عنده قلما كهذا إلا أشدُّ العقاب !

واستدار يخطو إلى مِنَصَّتِه ، فى صَدْرِ الفصل ، وهو يتنحنح وَيَسْعُل . . . فأما القلم فقد تسلل إلى جيب « مبروك أفندى » ليأخذَ فيه قراره المـكين .

وشَغَلَ المعلم نفسَه فترةً بما بين يديه من دفاتر وأوراق ، ثم تكلم خافت الصوت يقول : اجلسْ يا « دعبس » . . . سامحتُكَ هذه المرَّة . . . إياكَ أن يلهيَكَ شيء عن واجبك !

وهَوَى التلميذ على مقعدِه ، وهو فى غمرة من حيرة وذهول .

واستأنف المعلم نداءه للأسمـاء ، وإجراءه لِلامتحان ، حتى دَقَّ الناقوس ، أَذَاناً بانتهاء الدرس . . . فنزل « مبروك افنـدى » عن المِنَصَّة ، واتخذ سبيلَه إلى الباب ، يخطو كالنمر المتخطِّر ، تتقدمه قُصَّتُه الشعثاء ، وتتراقصُ فى يده مِسْطَرَتُه العاتية !

وما كاد يتوارَى عن الأنظار ، حتى علا نَحِيبُ «دعبس الـكومى» وبين جنبيه من الغيظ جَمْرَة تتلظَّى...

فسأله أحد الرفاق : أتبكى وقد نَجَوْتَ من المِسْطَرَة ؟

فنظر إليه الغلام مُغْضَباً ، دون أن يَنْبِس .

وما لبث أن أمسكَ بزجاجة المداد الأحمر ، وقَذَف بها من النافذة ، وهو يَعَضُّ على يده ، والتلاميذُ مِن حوله فى ضَجَّة يتضاحكون . . .

فهرس

صفحة

شباب وغانيات ٥

شيخ الزاوية ١٤٧

كَبْشُ الفداء ١٦٣

ضَرْبُ الحبيب ١٨١

جنازة حارَّة ١٩٥

طريق إلى الحب ٢٠٧

مسطرة « مبروك افندى » ٢١٧

أحدث مؤلفات

محمود تيمور

مجموعات قصصية :

كل عام وأنتم بخير
إحسان لله
خلف اللثام
شفاه غليظة
بنت الشيطان
مكتوب على الجبين
فرعون الصغير
قال الراوى
شباب وغانيات

قصص مطولة :

كليو باتره فى خان الخليلى
سلوى فى مهب الريح
نداء المجهول

قصص تمثيلية :

ابن جلا
اليوم خمر
حواء الخالدة
المخبأ رقم ١٣
سهاد
المنقذة
عوالى
قنابل
أبو شوشة والموكب .

صور وخواطر :

ملامح وغضون
أبو الهول يطير
عطر ودخان
فن القصص